

فراس السواح

موسوعة تاريخ الأديان

الزرادشتية، المانوية، اليهودية، المسيحية

الكتاب الخامس



موسوعة تاريخ الأديان

الكتاب الخامس

الزاردشتية - المانوية

اليهودية - المسيحية

موسوعة تاريخ الأديان

الكتاب الخامس

الزاردشتية - المانوية

اليهودية - المسيحية

تحرير

فراس السواح

المترجمون

محمود منقذ الهاشمي

عبد الرزاق العلي



مقدمة

لطبعة الأعمال غير الكاملة

عندما وُضعت أمامي على الطاولة في دار التكوين كومة مؤلفاتي الاثنین والعشرين ومخطوط كتاب لم يُطبع بعد، لنبحث في إجراءات إصدارها في طبعة جديدة عن الدار تحت عنوان الأعمال الكاملة، كنت وأنا أتأملها كمن ينظر إلى حصاد العمر. أربعون عاماً تفصل بين كتابي الأول مغامرة العقل الأولى والكتاب الجديد «الله والكون والإنسان»، ومشروع تكامل تدريجياً دون خطة مسبقة في ثلاث وعشرين مغامرة هي مشروع المعرفي الخاص الذي أحببت أن أشرك به قرائي. وفي كل مغامرة كنت كمن يرتاد أرضاً بكرةً غير مطروقة ويكتشف مجاهيلها، وتقودني نهاية كل مغامرة إلى بداية أخرى على طريقة سندباد الليالي العربية. ها هو طرف كتاب مغامرة العقل الأولى - دراسة في الأسطورة يدولي في أسفل الكومة. أسحبه وأتأمله، إنه في غلاف طبعته الحادية عشرة الصادرة عام 1988 والتي عاد ناشرها إلى غلاف الطبعة الأولى الصادرة عام 1976 الذي صممه الصديق الفنان إحسان عتايي، ولكن ألوانه بهتت حتى بدت وكأنها بلون واحد لعدم عناية الناشر بتجديد بلاكاتها المتآكلة من تعدد الطباعات التي صدرت منذ ذلك الوقت. وفي حالة التأمل هذه، يخطر لي أن هذا الكتاب قد رسم مسار حياتي ووضعني على سكة ذات اتجاه واحد. فقد وُلد نتيجة ولع شخصي بتاريخ الشرق القديم وثقافته وانكباب على دراسة ما أنتجت هذه الثقافة من معتقدات وأساطير وآداب، في زمن لم تكن فيه هذه الأمور موضع اهتمام عام، ولكنني لم أكن أخطط لأن أغدو متخصصاً في هذا المجال، ولم أنظر إلى نفسي إلا كهوا عاكفٍ بجذ على هوايته. إلا أن النجاح المدوي للكتاب الذي نفذت طبعته الأولى الصادرة عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق في ستة أشهر، ثم تتابعت طبعاته في بيروت، أشعرتني بالمسؤولية، لأن القراء كانوا يتوقعون مني عملاً آخر ويتلهفون إليه.

إن النجاح الكبير الذي يلقاه الكتاب الأول للمؤلف يضعه في ورطة ويفرض عليه التزاماتٍ لا فكاك منها، فهو إما أن ينتقل بعده إلى نجاح أكبر أو يسقط ويؤول إلى النسيان عندما لا يتجاوز نفسه في الكتاب الثاني. وقد كنت واعياً لهذه الورطة ومُدركاً لأبعادها، فلم أتعجل في العودة إلى الكتابة وإنما تابعت مسيرتي المعرفية التي صارت وقفاً على التاريخ العام والميثولوجيا وتاريخ الأديان. وعاماً بعد عام، كان كتاب لغز عشتار يتكامل في ذهني وأعدُّ له كل عدّة ممكنة خلال ثمانية أعوام، ثم كتبت في عامين ودفعته إلى المطبعة فصدر عام 1986، أي بعد مرور عشر سنواتٍ على صدور الكتاب الأول. وكان نجاحاً مدوياً آخر فاق النجاح الأول، فقد نفذت طبعته الأولى، 2000 نسخة، بعد أقل من ستة أشهر وصدرت الطبعة الثانية قبل نهاية العام ثم تتالت الطبعات.

كان العمل الدؤوب خلال السنوات العشر الفاصلة بين الكتابين، والذي كان لغز عشتار من نواتجه، قد نقلني من طور الهواية إلى طور التخصص، فتفرغت للكتابة بشكل كامل ولم أفعل شيئاً آخر خلال السنوات الثلاثين الأخيرة التي أنتجت خلالها بقية أفراد أسرة الأعمال الكاملة، إلى أن دعنتي جامعة بكين للدراسات الأجنبية في صيف عام 2012 للعمل كمحاضر فيها، وعهدت إلي بتدريس مادة تاريخ العرب لطلاب الليسانس ومادة تاريخ أديان الشرق الأوسط لطلاب الدراسات العليا، وهناك أنجزتُ كتابي الأخير «الله والكون والإنسان». على أنني أفضل أن أدعو هذه الطبعة بالأعمال غير الكاملة، وذلك على طريقة الزميلة غادة السمان التي فعلت ذلك من قبلي، لأن هذه المجموعة مرشحة دوماً لاستقبال أعضاءٍ جدد مازالوا الآن في طي الغيب.

وعلى الرغم من أنني كنت أخطب العقل العربي، إلا أنني فعلت ذلك بأدوات ومناهج البحث الغربي، ولم أكن حريصاً على إضافة الجديد إلى مساحة البحث في الثقافة العربية، قدر حرصي على الإضافة إلى مساحة البحث على المستوى العالمي، وهذا ما ساعدني على اختراق حلقة البحث الأكاديمي الغربي المغلقة، فدعاني الباحث الأميركي الكبير توماس تومبسون المتخصص في تاريخ فلسطين

القديم والدراسات التوراتية إلى المشاركة في كتابٍ من تحريره صدر عام 2003
عن دار T & T Clark في بريطانيا تحت عنوان:

Jerusalem in History and Tradition

ونشرت فيه فصلاً بعنوان:

Jerusalem During the Age of Judah Kingdom

كنت قد تعرفت على تومبسون في ندوة دولية عن تاريخ القدس في العاصمة الأردنية عمان عام 2001، شاركتُ فيها إلى جانب عددٍ من الباحثين الغربيين في التاريخ وعلم الآثار، وربطت بيننا صداقة متينة استمرت بعد ذلك من خلال المراسلات، إلى أن جمعتنا مرةً ثانية ندوة دولية أخرى انعقدت في دمشق بمناسبة اختيار القدس عاصمةً للثقافة العربية، وكانت لنا حواراتٌ طويلة حول تاريخ أورشليم القدس وما يُدعى بتاريخ بني إسرائيل، واختلفنا في مسائل عديدة أثارها تومبسون في ورقة عمله التي قدمها إلى الندوة. وكان الباحث البريطاني الكبير كيث وايتلام قد دعا كلينا إلى المشاركة في كتابٍ من تحريره بعنوان:

The Politics of Israel's Past

فاتفقنا على أن نثير هذه الاختلافات في دراستينا اللتين سُنشران في ذلك الكتاب، وهكذا كان. فقد صدر الكتاب الذي احتوى على دراساتٍ لباحثين من أوروبا وأميركا عام 2013 عن جامعة شيفلد ببريطانيا، وفيه دراسةٌ لي عن نشوء الديانة اليهودية بعنوان:

The Faithful Remnant and the Invention of Religious Identity.

خصصتُ آخرها لمناقشة أفكار تومبسون، ولتومبسون دراستان الأولى بعنوان:

What We Do And Do Not Know About Pre-Hellenistic Al-Quds.

والثانية خصصها للرد عليّ بعنوان:

The Literary Trope of Return - A Reply to Firas Sawah.

أي: العودة من السبي كمجاز أدبي - رد على فراس السواح.

الكتاب يُشبه الكائن الحي في دورة حياته، فهو يُولد ويعيش مدةً ثم يختفي ولا تجده بعد ذلك إلا في المكتبات العامة، ولكن بعضها يقاوم الزمن وقد يتحول إلى كلاسيكيات لا تخرج من دورة التداول. وقد أطل القراء في عمر مؤلفاتي حتى الآن، ولم يختف أحدها من رفوف باعة الكتب، أمّا تحوّل بعضها إلى كلاسيكيات فأمرٌ في حكم الغيب.

فإلى قرائي في كل مكان أُهدي هذه الأعمال غير الكاملة مع محبتي وعرفاني.

فراس السواح

بكين، كانون الثاني - يناير 2016

الفصل الأول

الزرا دشنية

تأليف: Geoffrey Parrinder

John B. Noss

ترجمة: عبد الرزاق العلي

ديانات إيران القديمة

إطلالة عامة

إن إيران، أو فارس كما كانت تسمى قديماً، مطوقة بمثلث من السلاسل الجبلية، ويوجد في القلب منها صحراوان ملحيتان تتميزان بالجذب والقفل حتى تبدو صحراء غوبي خصبة بالمقارنة. ومع جبال ترتفع إلى 5500م بالمقابل، فإن إيران تبدو أرض التناقضات الكبرى. إنها تحتوي على غابة مدارية في محيط بحر قزوين، ومناخاً متوسطياً في وديان الأنهار في الجنوب الغربي. وقد أدت هذه الاختلافات البيئية إلى نشوء ثقافات متنوعة شكلت الجبال حاجزاً جعل التواصل بينها صعباً. فبينما كانت إيران الغربية خاضعة للمؤثرات القادمة من ما بين النهرين واليونان وروما، كان الطرف الشرقي منها خاضع للمؤثرات القادمة من الهند وحتى الصين. بهذا شكلت إيران جسراً ما بين الشرق والغرب، حقيقة كهذه لم تؤثر في ديانتها فحسب، بل جعلت منها حداً فاصلاً في تاريخ المنطقة.

لقد اجتاحت إيران موجات من الآريين، شعب بدوي محارب، من الشمال والشمال الغربي نحو سنة 1000 ق.م. وبحلول 800 ق.م كانوا قد احتلوا الأرض واستوطنوا فيها، ونتبين في أديان الهند وإيران، نتيجة التأثير الآري، عدداً من الخصائص المتشابهة، حيث يظهر عدد من الآلهة المتشابهة) مثل ميتراس في كلتا المنطقتين، كما إن مفهومها للنظام الكوني متشابه، بالإضافة إلى التشارك في الكثير من الظواهر العامة المرتبطة بطقوسهم وعباداتهم.

يعكس دين الآريين نهج حياتهم. إنه دين شعب يحيا مرتبطاً بالطبيعة، ويقدر ما يستمتع بها فهو يخشاها، إنه مفتون بخيرها الذي يمدّه بالحياة، ومع ذلك فهو يخاف من قسوتها في تدمير الحياة. والطبيعة التجريدية للدين تدل عليها أسماء الآلهة: (ميتراس) العقد أو الإنفاق، (فارونا) القول الصادق و(آريمان) كرم الضيافة وحسنها، وما إلى ذلك.

الزرادشتية:

من المعتقد أن زرادشت قد عاش وعمل في شمال شرق إيران ما بين 628-551 ق.م ولكن في الواقع يمكن أن تكون حياته قبل ذلك. لا نعرف إلا القليل من التفاصيل عن حياته، والتي رويت بطريقة ورعة ومنقحة. وقد أثارت تعاليمه المبكرة عداً عظيماً له حيث اضطر إلى الهرب، وقد وجد في موطنه الجديد مريداً في شخص حاكم محلي هو الملك فيشتاسبا. وقد أصبح زرادشت بدءاً من هذا التاريخ شخصية ذات أهمية في القضايا المحلية، وكان متزوجاً وله بنت وولدان. وتقول المدونات أنه قد أغتيل في السبعينات من عمره.

وصلتنا تعاليم زرادشت من خلال سبعة عشر نشيداً من أناشيد (الغائثا)، والتي على الرغم من صعوبة ترجمتها، فإنها ملفتة للنظر في إبراز حمية زرادشت وحبه للإله، بالإضافة إلى حكمته. والإله بالنسبة لزرادشت هو الرب الحكيم أهورامزدا الذي خلق السماء والأرض، وهو الأول والأخير، وهو أيضاً الصديق، وهو الذي دعاه إلى الرسالة. والإله ليس له أي صلة بالشر. روحه القدسية تمنح الحياة وتخلق الرجال والنساء. وتقف على تعارض معه الروح الشريرة، القوة المدمرة، التي تتميز بالعقل الشرير والكذب والتكبر. ولا بد للبشر أن يختاروا بين هاتين القوتين المتعارضتين، هاتين الروحين التوأمين. فإذا ما اتبعوا طريق الشر كانت حياتهم حافلة بالأفكار والكلام والوقائع الخبيثة. ولكن إذا ما اتبعوا طريق الحق فإنهم سوف يصبحون شركاء في العقل الخير ويبلغون الكمال والخلود والتقوى والملكوت، والتي كلها من صفات الإله.

مهما يكن، فإن الصراع بين الحق والباطل ليس أبدياً، ولا بد أن تأتي ساعة التحول المصيرية للعالم، عندها يجتمع الجيشان العظيمان المتخاصمان، ويخضع البشر للامتحان العظيم من خلال النار. عندها سوف تحل العدالة، وسوف يتجدد كل شيء بعون من أصحاب الدين الخير، المخلصين الذين سيردون الهوى بالأعمال الصالحة وينشر التعاليم الصائبة. وكل من يقوم على رد الباطل يكون من المخلصين. عبارة تشير بشكل خاص إلى زرادشت ذاته.

وعلى الرغم من إنكار زرادشت للكثير من التراث القديم فإنه لم ينسلخ عنه كليةً، حيث إنه ككاهن قد كتب عدداً من أناشيده على نمط التراث القديم. ورأى في طقس النار القديم رمزاً للنور وقانون الإله الكوني، وقد مارس ذلك في صلواته. بعض سمات الإله هذه، على الأقل، هي تعديلات لأفكار آرية، ومثال عليها فكرة الصدق أو الحقيقة. وقد كان مهتماً لممارسة التصور المعهود حول محاكمة الفرد عند الموت. لكنه أعاد صياغة ونمذجة كل ما تبناه بطريقة فريدة. وتطلب منه حبه للإله أن يعمل من أجل العدالة الاجتماعية والوئام. لقد رفض الفعل التدميري للبدو الغزاة، وأبصر في الحياة الريفية المستقرة نموذجاً للسلام والصدق.

لا بد لتعاليم مؤسس أي دين أن تتطور على يد أتباعه، والزرادشتية ليست استثناءً. لقد جمعت أفكار زرادشت ونُسقت وتحددت وتساقطت مع فكر وحاجات الأزمنة المتغيرة، ولم يعتمد أتباعه تشويه تعاليمه، بل بدا أنهم عملوا على التوفيق بين تعاليمه والدين التقليدي. ونتج عن ذلك دين عظيم تم الإفصاح عنه بتعابير أسطورية.

المصادر:

كتاب الزرادشتيين المقدس هو الأفيستا، وعلى الأغلب أنه لم يدون حتى القرن الخامس الميلادي. ولكن قسماً منه يعود في الزمن إلى عهد أقدم بكثير، حتى إلى ما قبل الزرادشتية. ولسوء الحظ فإن الأفيستا لم تنج من عاديات الزمن، فكل ما تبقى منها هو أناشيد زرادشت، والغائا، بالإضافة إلى النصوص الطقسية الدينية (الياشا وفينديداد) وأناشيد أخرى (الياشت) وابتهالات.

وظهرت في القرن التاسع الميلادي بعض الكتب الزرادشتية التي تدافع عن الديانة الزرادشتية ضد الدعاية المسيحية والإسلامية، وتشرح الديانة لل العامة. كتبت هذه الكتب باللغة البارتية الوسطية أو البهلوية، وكانت عبارة عن مقتطفات وملخصات وتعليقات على الأفيستا، وأصبحت هذه الكتب هي ما يحفظ المعتقدات القديمة. ويضاف إلى ذلك الفلكلور والنقوش الكتابية والعملات وتقارير الرحالة الأجانب، ديانة الزرادشتيين الجدد، كل ذلك أضاف إلى معارفنا بديانة إيران.

مفهوم الإله:

يُعلِّمنا كتاب في تلقين الدين الزرادشتي أن النظام والقانون الذي نشاهده في السماء وعلى الأرض، يجعلنا نعتقد ونؤمن بالكينونة التي لا تحد للرب القدير. يحب الزرادشتيون الدنيا، ويعتقدون أن الحياة تُعلِّمنا أن الإله هو الأعظم والأفضل والأسمى في الفضيلة والاستقامة والخير.

والأصل في دين الباطل هو أن الشر يأتي من الخالق. ولكن الإله الحق لا يمكن أن يكون مسؤولاً عن الشر، فالشر ماهية كما الخير، وكلاهما يعود إلى العلة الأولى: الإله والشيطان. وأهريمن الشيطان كان موجوداً دائماً، وهو مسؤول عن الشر بكلية في الدنيا، بما في ذلك المرض والموت والغضب والجشع. وبما أن الاثنين جوهران متعارضان أساساً، فإنهما حتماً باقيان في صراع.

لكلِّ قواه الخاصة به في صراعهما، وصفات الإله التي يطرحها زرادشت مثل الكمال والخلود إلخ.. تتحول عنده إلى شخصيات فردية جليلة هم الخالدون الوهابون الستة أو أمهراسباندا، وهؤلاء يجلسون أمام عرش الإله ولهم مكانتهم الخاصة في الشعائر الزرادشتية. إنهم يحرسون عناصر العالم (النار والتراب والماء، إلخ..). وهم ليسوا الكائنات السماوية الوحيدة بأي حال، هناك أيضاً اليازاتا Yazata أو الملائكة البديعون. ومكانة هاتين الفئتين تراتيباً، في الغالب، هي كمكانة رؤساء الملائكة والملائكة في الديانة المسيحية. يشكل اليازاتا، نظرياً، حشداً كبيراً من الملائكة البديعين، ولكن من الطبيعي أن تكون السيطرة لأفراد محددين منهم، عادة ما تتمثل بشخصيات آرية قديمة. وعلى الرغم من الميثولوجيا الموجودة، فإن الصفة المجردة لهذه القوى السماوية تبقى قائمة: إنها لا تزال تمثل العقل الخيّر والصدق والسلام.. إلخ.

وفي المقابل، يوجد حشود من الشياطين والأرواح الشريرة المتعارضة مع القوى السماوية، وهي نادراً ما تصور من خلال شخصيات فردية كما تصور نظيراتها السماوية، لكن يعبر عن طبيعتها الدنيئة بأقوى العبارات. وترسم صور رؤساء الشياطين بمزيد من التفاصيل، إنهم الذين يقفون في مواجهة الأمهراسبندات، الوهابين الخالدين، ويمثلون رأس الردة والفوضى والأفكار الخبيثة والمعصية والعطش، وفوق كل ذلك الكذب.

فهم العالم:

إن تاريخ العالم هو تاريخ صراع الإله مع الشيطان، وهو مقسم إلى أربع مراحل، كل مرحلة مدتها ثلاثة آلاف سنة، في المرحلتين الأولى والثانية يجهز كل من الإله والشيطان قواهما، ويدخلان في المرحلة الثالثة في صراع، حيث يهزم الشيطان في النهاية. لقد اخترق الشيطان حاجز السماء في بداية الخلق، وتسلب على الإنسان الأول والبهيمة الأولى بالمرض والموت. وهو قادر كما في الأصل على القيام بالأفعال الهدامة فقط. ولكن في لحظة انتصاره الظاهري فإن كلاً من الإنسان والبهيمة يطرحان بذوراً تؤدي لانبعاث الحياة البشرية والنباتية. وحيث إن الحياة خرجت من موتها، فإن ديمومة الخلق الخير وهزيمة الشيطان هي مؤكدة لا محالة.

إن العالم ينتمي للخالق ذاته، لذلك فإن الزرادشتيين، بعكس بعض الأديان الأخرى، لا يعتقدون أن المادة شر. في الواقع، الشيطان، وليس البشر، هو من طبيعة مغايرة للعالم المادي، إنه لا يستطيع أن يأخذ شكلاً جسدياً، ولكن يبقى في العالم على شكل طفيلي يحاول عبثاً تدمير عمل الله.

الرجال والنساء في الدنيا:

الناس، الذين هم تجليات لذواتهم العلوية، القرافاشي، هم فاعلون أحرار يملكون القدرة على الاختيار بين اتباع الله أو الشيطان. فإن اختاروا الصواب فإنهم يساندون الإله في نصره النهائي. واختيار الصواب يعني القبول بالعالم كما هو، لأنه عالم الله. ولا يفرق الزرادشتيون ما بين الروح والجسد (كما يفعل القديس بولس)، حيث تشكل كل من الروح والجسد وحدة. وإن الانسحاب من العالم كما يفعل الرهبان ما هو إلا رفض لعالم الإله، فالزهة خطيئة كبرى كما التماذي في الشهوات، وعلى الرجال واجب ديني في أن يتخذوا زوجات وينجبوا أطفالاً، وهكذا يقوى الدين الصالح. كما إن زراعة الأرض وتربية الماشية هي فعل مقدس. والجسد السليم يمكن الإنسان من امتلاك عقل خير وسليم، والذي بدوره سوف يمكنه من القيام بأفعال الخير.

وهكذا تعتبر الديانة الزرادشتية ديانة مسرة وابتهاج، حيث لا يحذر أن يكون المرء معتلاً في اليوم المكرس لإله الدينونة من كل شهر. في يوم راشن ومعناه الحياة بهيجة، يستطيع الإنسان القيام بأي شيء يرغبه، ولكن ضمن شروط القدسية، وانطلاقاً من واجب احترام الآخرين، فإن سوء الأخلاق وإزعاج الناس يعتبران من الخطايا. ومن أساسيات الدين أن يستمتع المرء بالحياة وأن يساعد الآخرين على أن يستمتعوا أيضاً.

وتمتلك الزرادشتية مجموعة قيم أخلاقية اجتماعية متينة، وبمقارنتها بالهندوسية فإنها أكثر فاعلية. والعمل هو ملح الحياة، ولكن لا يعبر عن شخصية الإنسان بما تعمل وتقول فحسب، بل بما تفكر أيضاً. ولا بد أن يتغلب البشر على الشكوك والرغبات المنحرفة من خلال العقل، وأن يتغلبوا على الجشع بالقناعة، وعلى الغضب بالسكينة، وعلى الحسد بالإحسان، وعلى الفاقة بالاحتباس، وعلى الشقاق بالسلم، وعلى الباطل بالحق.

السمات الظاهرية للديانة الزرادشتية:

كما الهندوس والسيخ، يرتدي الزرادشتيون بعض الرموز كجزء من لباسهم اليومي ليذكروهم بديانتهم. وأول هذه الرموز هو الحزام المقدس، الكوشتي، مربوط به اثنان وسبعون خيطاً ترمز إلى فصول الياسنا. يربط ويفك هذا الحزام عدة مرات يومياً تعبيراً عن ثبات العزيمة أخلاقياً ودينياً. ثاني هذه الرموز هو القميص، السادري، الذي يرمز إلى الدين نفسه. ويلبس الكهنة أردية بيضاء مع عمامات وأقنعة فوق أفواههم أثناء القيام بطقوس النار المقدسة ليتجنبوا تدنيسها بنفس زفيرهم. وعدد صلواتهم خمس بحسب مواقيت اليوم الخمسة، وهي الصبح والظهر والعصر والمغرب ومتنصف الليل. وهناك احتفالات بالأحداث المهمة في الحياة، مثل الولادة وسن البلوغ والزواج والحمل والموت.

الموت من عمل الشيطان، لذلك فإن الجثة هي مسكن الشياطين. وكلما زاد صلاح المتوفى زادت قوة الفعل الشيطاني. وإذا ما أحرقت الجثة أو دفنت فإنها سوف تدنس العناصر، لذلك فإن الجثث توضع في بروج الصمت، الداخما،

حيث تفتقرسها النسور. ولا بد أن يخضع المرء لطقس تطهيري قبل أي صلاة. ويتم الاعتراف بالذنوب التي ارتكبت بالفكر أو القول أو الفعل.

وهناك شعيرتان رئيستان: طقوس النار وقربان الهاوما. فالنار هي رمز وابن أهورامزدا، ولا بد أن يتم الطقس بعيداً عن أي دنس، بحيث لا تظهر النار للشمس أو لأي عيون غير مؤمنة. وتحفظ النار في معبد النار. ويوجد عدة أشكال للنار المقدسة، ويقوم بخدمتها كهنة مختصون على الدوام وعن طيب خاطر. النار الأولى هي بهرام، أو ملك النيران، التي تأتي في أرفع منزلة. وعندما يزور البارسيون النار، فإنهم يفركون جباههم برمادها رمزاً للتواضع والتساوي وكمصدر للقوة.

هدف التاريخ:

بعد الموت توزن أعمال المرء بالميزان، وإذا ما مالت كفة الخير على الشر عبر المرء إلى السماء، وعكس ذلك يذهب إلى الجحيم، حيث العقاب على قدر الإثم. لكن هذا ليس هو النهاية. فالجحيم الأبدي إن هو إلا درس لا أخلاقي في عيني زرادشت. فالإله الطيب لن يسمح أبداً بأن يكون عذاب مخلوقاته أبدياً. فالغاية من العقاب هو الإصلاح والتوبة بحيث إنه في يوم البعث سوف يصعد الجميع بعون المخلص لمواجهة الحساب الأخير. وفي النهاية عندما يصفى الجميع يتم القضاء على الشيطان وكل أعماله، ولن يبقى تمييز أو فرق بين السماء والأرض، حيث يمكن للجميع أن يتعبدوا ويحيوا مع الله في مجد خلقه.

الحركات الدينية الأخرى في إيران:

الزروانية:

لم يكن إله زرادشت كافياً وحده لكثير من الإيرانيين. فعلى الرغم من أنه كان الخير المطلق، فإنه كان محكوماً بنفوذ الشيطان. وبالنسبة للزروانيين فإن الروحين التوأمين عند زرادشت، اللذين أصبحا أهورامزدا وأهريمن، قد صدرا عن الذي لا يحد وهو فوق أي ثنوية، والذي هو «زروان» الزمان والمكان

المطلقان. إن زروان هو الإله ذو الوجوه الأربعة. ووجوهه أو مظاهره تمثل الولادة، والصبا، والشيخوخة، ثم العودة إلى المطلق، وهي عصور العالم. وهكذا وضمن الواحد نرى كل مظاهر الحياة والنور والظلمة والحرارة والبرودة.

تخبرنا الأسطورة الزروانية الأساسية أن زروان أراد ابناً، لكنه شك في تحقيق رغبته، على الرغم من تقديمه القرايين لمدة ألف عام، وفي لحظة شكه ولد له توأمان، أهورامزدا الذي هو تجسيد للخير بإطلاقه، وأهريمن، الشيطان، الذي هو تجسيد لشك زروان. ولأن أهريمن كان الأول في مجيئه للعالم فقد نُصَّب حاكماً لهذا العالم مدة 9000 سنة. غير أن أهورامزدا كان قد منح الكهانة والنصر النهائي. وهذه المكانة المتساوية نظرياً للكائنين قادت إلى تقدمه القرايين إلى أهريمن باعتباره قوة لا بد من استرضائها. ويقارن كثير من الباحثين هذه التقدمات بالتقدم إلى ديوس أريمانوس في المترانية.

نستطيع أن نتبين تأثيرات متعددة تأثرت بها الزروانية كالبابلية والهندية والإغريقية. ونتج عن ذلك أكثر من مدرسة فكرية: هناك المدرسة الجبرية التي تؤمن أن العالم هو حد الزمان الذي هو زروان، حيث ترى أن الكائنات البشرية ما هي إلا دميّ في يدي القدر، وتتكرر مفهوم زرادشت الأساسي حول الإرادة الحرة.

بينما مدارس أخرى تنكر خلق العالم من العدم بفعل إرادة وتقبل فكرة نشوء المادة التطوري، وفي هذا نكران للإله الخالق الزرادشتي. وتنكر هذه المدرسة الزروانية المادية الإيمان بالثواب والعقاب وبالتالي الجنة والنار. وربما مثلت هذه الأفكار التحديثية حركات هامشية في الزروانية.

قليل هو ما نعرفه عن علم الأخلاق الزرواني. ربما، ونتيجة للتأثر البوذي، اعتقد الزروانيون أن أصل الشر في العنصر البشري ما هو إلا خلط أو زيغ عقلي، أو جشع متجسد جسدياً في الشبق وعقلياً في الجهل. وكانوا يظنون أن النساء هن المصدر لمعظم الشر في العالم، حيث يغوين الرجال ويأخذنهم إلى طريق الخطأ العقلي. وهذه حركة بعيدة تماماً عن التعامل الأخلاقية الزرادشتية.

ما هو موجود عن العقيدة الزروائية ضئيل جداً، حيث لا يذكر أي نص إيراني هذا المذهب. كل ما لدينا عن الزروائية مأخوذ عن مؤلفين أجنبية تعود مصادرهم إلى القرن الرابع ق.م. وبعض النصوص المتفرقة تحاول التوفيق بين المعتقد الأرثوذكسي والزروائية. لا نستطيع أن نحدد متى نشأ هذا المذهب. ويشير بعض الباحثين إلى أن الروحانيين التوأمين عند زرادشت ما هما إلا تحويل عن الزروائية. ورأى آخرون في تمثال من البرونز يعود إلى القرن الرابع عشر ق.م. تجسيداً لزروان، ولكن ما هذا إلا تخمين.

ما هو مؤكد أن الحركة قد نمت أثناء المعهد الإخميني (550 - 333 ق.م) والبارثي (250 ق.م - 247 م). أما العهد الساساني (247 - 635 م) ربما كان عصر صراع بين الديانتين الزروائية والزردشتية. أو ربما كان داخل الديانة الزردشتية تيارات تمارس الطقوس الزروائي نفسه. وربما شكلت الزروائية مجرد حركة أكثر منهما فرقة دينية واضحة المعالم. ومع ذلك فقد كانت نافذة ومؤثرة.

الميتراية:

كان ميتراس في الأصل إلهاً للعقود، وميترا تعني العقد، وهو إله آري. هو الذي يصون الحقيقة ويحفظ النظام ويدمر القوى الشقاقية للشر والغضب والجشع والتكبر، وجميع آلهة الشر ورجاله. ويوصف بأنه المحارب القوي القادر. وهو الذي يصلي له المحاربون وهم ممسكون بأعراف خيولهم قبل الانطلاق إلى المعركة.

وبصفته حامي الصدق والحقيقة فهو قاضي الروح بعد الموت، وبصفته حافظ العقود فهو الذي يقرر متى ينتهي حكم الشيطان. والجميع في ترقب قدومه وسط الاحترام والولاء في يوم النصر.

وهناك نبوءة معروفة بعنوان: نبوءة هستاسبين، ذكرها المؤلفون المسيحيون، تم التعرف إليها باعتبارها نبوءة ميتراية تتوقع قدوم الإله في نهاية العالم ليدمر الأشرار بالنار وينقذ الصالحين. ولدينا عدد من النصب الرومانية تصور مولده، كما يذكر عدد من النصوص المسيحية من القرن الخامس

الميلادي وجود أسطورة ميثرائية قديمة تتنبأ بظهور نجم في السماء سوف يقود المجوس إلى مكان مولد المخلص.

يعتبر ميثرا إله شعبي ذو أهمية في التاريخ الإيراني، حيث تمت الاستجابة به والابتهاال له من قبل الملوك الإخمينيين على ما يظهر في نقوشهم الكتابية. ولدنا العديد من أسماء العامة والملوك المركبة تحمل في أحد شطريها اسم ميثرا (مثل ميثراديتس). وقد بقي يشغل مكانه مهمة في الطقوس الزرادشتية.

لكن ليس بالإمكان التأكيد أنه كان يوجد عبادة ميثراوية في إيران، وذلك على الرغم من أنه من إيران انطلقت هذه العبادة باتجاه الشرق إلى الهند، وباتجاه الغرب إلى ما بين النهرين وآسيا الوسطى. ونرى أن الأساطير الأرمنية، والأسماء المشتقة من أسماء آلهة، والمنحوتات النافرة والكتابات النقشية المصرية والأناضولية، جميعها تشهد على الشعبية الكبيرة لهذا الإله في أنحاء الشرق القديم أثناء العهود ما قبل المسيحية.

دخلت الميثرائية إلى روما أول مرة عام 60 ق.م، وانتشرت عبر الإمبراطورية الرومانية حتى وصلت إلى بريطانيا في القرن الثاني الميلادي. وقد اعتنقها بشكل رئيس الجنود، لذا كانت عبادة ذكورية بامتياز. ولا بد أن يخضع الداخل الجديد إلى الاختبارين الجسدي والروحي، ومن خلال ذلك يتبرأ من كل السلطات ما عدا سلطة ميثرا. وكان من المأمول أن يتمسك بناموس أخلاقي محدد. وبالمقابل فإنه يتلقى وعداً بنصيب في السماء يوم الحساب.

يقوم الإيمان المركزي لهذه العبادة على قيام ميثرا بالتضحية بثور. كان هذا الفعل الطقسي خلاقاً وخلصاً. حيث يفكر المتعبد بالأضحية الأولى عندما خرجت الحياة من الموت، ويتطلع إلى الأضحية الأخيرة للإله ميثرا عندما يموت الحيوان الأخير ليمنح الإنسان إكسير الخلود. وتتم المشاركة في تجربة هذه الهبة السماوية الأولى من خلال وجبة جماعية مشتركة فيها الخبز والخمر حيث يمثل الكاهن الإله ميثرا.

المندائيون :

المندائيون أو الناصورائيون (nazorians) أو (الصابئة) هم طائفة صغيرة ما تزال موجودة في جنوب العراق وفي إيران المجاورة. ويدعون انحدرهم من يوحنا المعمدان. ويعتقدون أن أسلافهم قد هربوا إلى فارس بعد سقوط أورشليم. لغتهم ورموزهم مزيج من عناصر سامية وإيرانية، وهي في الغالب ذات مضمون غنوصي. ويعود أول تدوين لنصوصهم المكتوبة بالمندائية إلى القرن الثامن الميلادي. لكن مضمون هذه النصوص يعود إلى زمن أقدم من ذلك بكثير. إنهم مجموعة باطنية خاصة جداً. ولا يسمح إلا لرجال الدين الاطلاع على النصوص الدينية الأكثر سرية.

وخشية من طبيعة اللغة التجسدية فإن المندائيين يصفون المطلق كذات سامية لا شكل لها ويدعونها ملك النور، ورب العظمة، ومانا العظيم، وملك النور ثابت في الأعلي مقابل مملكة الظلام. وخلق العالم هو نتيجة فيض من ملك النور، وأهم ما صدر عنه من مخلوقاته هو المخلص مانداد هيا ومعناها معرفة الحياة، ومنه جاء اسم الطائفة. وعندهم أن كل شيء في عالم المادة له قرينه السماوي. والكون نفسه مشابه في الشكل لخالقه وهو الإنسان الأسمى والأكمل. وكما في ديانات كثيرة فإن المندائيين يعتقدون أن حدود الجسد المادية لا تعبر عن طبيعة الكائن البشري الحقيقية. والروح، كما يعتقدون، هي في غربة في هذا العالم، إنها ذرة نور وقد سجنّت في المادة عند خلق هذا العالم. وإذا كان الجسد قد خلق بواسطة الكواكب، فإن الحياة والنفس قد جاءا من عالم النور. غير أن الروح لن تتحرر من الجسد عبر قهره وإذلاله عن طريق الزهد. فالناس يمكنهم التنعم بالهبات الخيرة للحياة باعتدال. إن ما يعيق تحرر الروح هم الكواكب، والنجوم، وما يمكن اعتبارها أدياناً زائفة كاليهودية والمسيحية. وسوف تتحرر أرواح الصالحين في نهاية الزمان عندما يتم التخلص من الأرض والكواكب. كما إن التحرر يمكن أن يحصل في الزمان والمكان الراهنين بفعل هيبيل زبوا، مخلص دخل العالم السفلي وهزم الأرواح الشريرة.

والتعميد يطرد الأرواح وهو أساس الخلاص. إنه غسل للجسد والروح

وبعث لحياة جديدة. وتشكل الوجبة القربانية جزءاً من التعميد. ويوجد طقس آخر مهم هو المسيكتا، أي النهوض أو الصعود حيث طريق الروح إلى عالم النور يصبح ممكناً من خلال طقوس التطهير التي يحتفل بها عند موت الإنسان. وكما يظهر لنا من خلال العديد من المنحوتات النافرة الإيرانية فإن المصافحة بشكل عام تعتبر فعلاً دينياً ذا أهمية، وهي تؤدي دوراً كبيراً في الديانة المندائية، وتُعرف بالكوشتا، وتقدم هذه المنحوتات تفاصيل كثيرة حول كل طقس لأن أي أداء غير صحيح يمكن أن تكون له عواقب وخيمة على كل من المريد والكاهن. وقد قضت جائحة طاعون على كل الكهنة تقريباً في القرن التاسع عشر. وعلى الرغم من تشكيل مجلس كهنوتي جديد، إلا أن معظم الكهنة هرمون. ولا يبدو أن إمكانية الاستخلاف قائمة الآن.

المانويون:

ولد ماني لأسرة من النبلاء البارثيين 216 - 274م، وأمضى شبابه فيما بين النهرين، محيط احتوى الكثير من الديانات في ذلك العصر وصهرها. جاءته الرؤيا الأولى وهو في سن الثانية عشرة، وفي سن العشرين انطلق ليؤسس دينه الجديد. وبوجود قنوات اتصال مع البلاط الملكي فقد اجتذب عدداً من القادة النافذين، ولقي تأييد العاهل الساساني شابور الأول والذي رافقه ماني في حروبه الغربية. وبقي التأييد الملكي لماني حتى آخر أيام بهرام الأول، بعدها تحدى الكهنة الزرادشتيون (الماجي) بقيادة كارتير، تعاليم ماني لأنهم كانوا يخشون نجاحه، وقد حاكوا له مؤامرة وأسقطوه، ومات وهو مقيد بالسلاسل.

ادّعى ماني لنفسه تحقيق ما صبا إليه كل من زرادشت وبوذا ويسوع. جميعهم كان عندهم أجزاء ناقصة من الحقيقة. وحتى إن هذه الديانات قد أفسدت من قبل أتباعهم. معتبراً نفسه رسول النور لكل البشر فقد حدد آلهته بحسب مستمعيه. لذلك عندما كان يخاطب المسيحيين فإن المخلص هو يسوع، وعندما يخاطب الزرادشتيين فإن الإنسان الأول هو أهورامزدا. بأي حال فإن إله العهد القديم كان مرفوضاً من ماني. كان المانويون يقدمون أنفسهم في أيام الجور والاضطهاد كمسيحيين أو زرادشتيين. ربما هذه الميزة بعينها هي ما رقت لشابور.

تأتي الثنوية في الصميم من تعالم ماني. الإله رب العزة يعارضه أمير الظلام. والاثنتان أصلان أوليان. وخلق العالم من أجساد الأراكنة ولكن شرارات من النور تم احتباسها داخل المادة المظلمة، عندما تغلب الأراكنة على «الإنسان الأول» (ويدعى أيضاً بالإنسان القديم) وصار أسيراً لعالم الظلام. في هذا العالم الممتزج تبحث الروح عن النجاة من خوف الموت، هذا العدو الذي يفصلها عن موطنها الحقيقي.

ويتحقق التحرر عن طريق الزهد ومعرفة الطبيعة الحقيقية للنفس، ودحر الشياطين من قبل المخلص، والذي هو نفسه قد خلصه الله من برائتهم. عند التحرر تصعد الروح إلى الفردوس الجديد المحكوم من الإنسان الأول. وفي نهاية الزمان، عندما تتحرر كل شرارات النور، فإن كامل الجسد سوف يعود إلى فردوس الخلود. فيما بين ذلك فإن تلك الشرارات التي لم تتحرر في هذه الحياة خاضعة للتناسخ.

يتوزع المنتسبون إلى فئتين: السماعون وهم الفئة الأولى، الذين يؤمنون الطعام والضروريات للصفوة التي هي الفئة الأعلى. لقد أنتج ماني، وعن علم ودراية، ديناً جديداً، وزوده بأدب ديني وشعائر مقونة. لقد حرم الأصنام، لكن واعتقاداً منه بالقيمة التربوية للفن فقد أمر بتجليد الكتب بشكل جميل مع رسوم توضيحية. كما أمر أن تصاحب الطقوس الدينية موسيقاً وأناشيد جميلة. غير واضح إذا ما امتلك المانويون نظام مناسك وقرابين.

انتشرت المانوية عبر الإمبراطورية الرومانية والمنطقة العربية والهند والصين. وعلى الرغم من الاضطهاد الذي أتى على الدين لعدة قرون، فإن الدين المانوي كان له تأثير في العديد من الحركات، مثال على ذلك: الأليينون في فرنسا العصور الوسطى.

تاريخ موجز للدين الإيراني:

الأصلان الأساسيان في الديانة الإيرانية هما الدين الشعبي الآري وتعاليم زرادشت. والتاريخ الديني الإيراني هو سيرة تفاعل هذين المعتقدين تحت تأثير قوى خارجية. ويعتبر العهد الإخميني (550 - 333 ق.م) هو أحد ذرى تاريخ إيران السياسي وفيه حصل التغلغل الزرادشتي في تراث ودين الدولة بشكل قوي. وتشير عدد من النقوش الكتابية الملكية إلى الزرادشتية كمصدر تأثير قوي. وتشير

عدد من النقوش الكتابية الملكية إلى الزرادشتية كمصدر تأثر قوي في البلاط، ولا سيما أثناء حكم دارسوم وأحشورش، حيث كان الماجي (المجوس) هم رجال الدين الرسميون، طبقة كهنوتية وراثية واجبها الأساس كان الاهتمام بالدين. وكانوا يقومون بكل الطقوس الدينية المعروفة. وبينما أصبحت الزرادشتية أكثر شعبية. كان الماجي هم من حملوا التعاليم، ربما من دون اعتبارها ديناً أو عبادة مستقلة. وبما أن الزرادشتية قد انتشرت في إيران عن طريق الماجي فقد توحدت تعاليم النبي مع الدين التقليدي، توحداً ميز كلا من الفترة الإخمينية والعهد اللاحقة. كانت الإمبراطورية الأخمينية واسعة، ما أدى إلى أن يفرض تشابك الثقافات تأثيراً في الدين. حيث دخل التماثيل الإغريقية في الديانة وأصبح علم الفلك البابلي عاملاً مؤثراً فيما. وقد يكون هذا المحيط الاجتماعي المتنوع هو ما أدى إلى ظهور الزروانية.

أدى غزو الاسكندر الأكبر عام 333 ق.م، وقدم الهلينية، إلى صدمة عظيمة أصابت الإيرانيين، على الرغم من محاولة الاسكندر توحيد الشرق والغرب وتبنيه للكثير من الأعراف. وبعد أن استقلت إيران حكمها البارثيون من 250 ق.م إلى 247 م. وكون البارثيين قد امتلكوا حضارة أقل تطوراً فقد أبقوا على الكثير من التقنية الهلينية، والعمارة والنظام النقدي وغيرها. بدأت الثقافة الإيرانية بالبروز تدريجياً في القرنين الثاني والأول ق.م ويمكن مشاهدة ذلك في فنهم ونقودهم المعدنية. وبدأ يظهر تأثيرهم في محيطهم بعد ذلك. وإذا كانت الميثراوية الرومانية قد نشأت عن الصيغة الإيرانية لعبادة هذا الإله وليس نتيجة للاحتكاك مع مملكة بونتس الفارسية في آسيا الصغرى⁽¹⁾، فهذا يعني أن الميثراوية قد انتقلت إلى روما نتيجة التوسع البارثي غرباً. ومن المعتقد أن المندائيين قد جاؤوا إلى إيران في العهد البارثي.

(1) وهي مملكة في شمال شرق آسيا الصغرى على شواطئ البحر الأسود أسس فيها ميثريديتيس الفارسي مملكة مستقلة، 301-63 ق.م، وملوكها من أصول بارثية نقلوا معهم طقوسهم الإيرانية القديمة على الرغم من تهليلهم - المترجم.

على الرغم من أن الزرادشتية كانت ديانة الدولة الرسمية أيام الساسانيين 247 - 635م، فقد وجد عدد من الأقليات الدينية كالבודהية واليهودية والمسيحية والمندائية والمانوية. بعد تحول الإمبراطور قسطنطين الكبير إلى المسيحية، ظهرت حاجة ملحة لدين يوحد الإمبراطورية الفارسية الواسعة ضد روما المسيحية وتهديدات أخرى وغيرها. لكن من الخطأ أن نطرح الصراع بين الأديان الإيرانية المتعددة على أنه سياسي.

من قديم الزمان والفكر الديني يعالج مشكلة الشر في العالم، القضية المحورية لكثير من الحركات. فقد رفض المانويون المادة باعتبارها أصل الشر، بينما أكد المندائيون والزرادشتيون أن الحياة هبة من الخالق. وقد انقسم الزراونيون والميترايون حول الموضوع كذلك. وعلى الرغم من أن الزرادشتية كانت دين الدولة الساسانية الرسمي، إلى أنه تحت السطح الظاهري للعقدية الرسمية وطقوسها، استمرت الخلافات والتباينات بخصوص القضايا اللاهوتية.

والوحدة التي هيمنت ربما كانت نتيجة التهديد المشترك القادم من الإسلام. لقد ضمت الإمبراطورية الإسلامية إيران إليها عام 635م. يبدو أنه قد حصل قليل من الاضطهاد المنظم بعد انتهاء الحروب. ونتيجة لارتباط التقدم المادي بالدخول في الإسلام فقد دخل الكثيرون فيه مع بعض الارتدادات عنه. حافظت الزرادشتية على وجودها وإن يكن محلياً، ولا سيما في فارس Fars. ونتيجة للمناخ الفكري المتحرر في القرن العاشر الميلادي ظهرت الكثير من الكتب دفاعاً عن الزرادشتية، الدين الخير.

عندما ازداد الوضع سوءاً في إيران هاجرت جماعات من الزرادشتيين الأوفياء لدينهم إلى الهند وشكلت تجمعات دُعيت بالبارسيس (البارسين) واستقروا في بومباي بشكل رئيس. على الرغم من تميزهم بالمحافظة، إلا أن تعرضهم لتأثيرات مختلفة، جعلهم يظهرون ميلاً إلى تعديل بعض الممارسات والمعتقدات. ووضعهم صعب جداً في الوقت الحاضر. ونتيجة لجديتهم الكبيرة في العمل، فإن الكثير منهم يتمتعون بالثراء، لكن هذا يشكل عبئاً عليهم في بلد ذي ميول اشتراكية قوية. وقد حافظوا على هويتهم من خلال مدارسهم الخاصة. لكن على هذه المدارس أن تقبل اليوم غير البارسيس، ولا أحد يعلم ماذا يخفى المستقبل لهم.

لم يهاجر جميع الزرادشتيين إلى الهند، بل بقي بعضهم في إيران. وعلى الرغم من صعوبة ما عانوه، فقد كونوا تجمعات صغيرة ما تزال مستمرة، ولا سيما في يزد وكرمان وطهران. وقد منحوا حرية العبادة، وما زالوا يمارسون طقوس ديانتهم في معابد النار والمزارات. حتى إن بعض المزارات الإسلامية تبدو كتحويلات عن الزرادشتية. كما أن الشاه السابق قد استخدم بعض الألقاب الإيرانية القديمة.

تأثير الديانة الإيرانية:

على الرغم من العدد المحدود للزرادشتيين الممارسين لديانتهم في العالم اليوم، ما يزيد قليلاً على 125 ألفاً في الهند وما يقارب 25 ألفاً في إيران بحسب إحصاء 1976، فإن الديانة الإيرانية، ولا سيما الزرادشتية، قد أدت أدواراً حيوية على مسرح تاريخ الدين في العالم. كان زرادشت معروفاً ومحترماً في بلاد الإغريق في عصر أفلاطون، وقد انتشرت عبادة ميترا عبر الإمبراطورية الرومانية حتى وصلت شمال إنكلترا. بالعودة إلى الشرق كان الفن والدين الإيرانيان مصدر تأثير كبير في الهند. حيث انتشرت عبادة ميترا من إيران إلى مجوس الهند (Magas) بدءاً من القرن السادس الميلادي وما بعد. ولكن قبل ذلك يمكن أن تكون الزرادشتية قد ساعدت على نشوء فكرة المخلص في البوذية في هيئة ميترايا بوذا. وقد أدت إيران دوراً مهماً في الديانة الإسلامية، معينة إياها في التحول من دين عربي إلى دين عالمي. حيث إن لإيران دوراً في تطور ونمو الحركات الباطنية والصوفية وفكرة المخلص، وهي مفاهيم تدين بنسبة ما إلى التأثير الإيراني. وربما كان أعظم تأثير لإيران في تطور المعتقد اليهودي - المسيحي. ومن المعترف به بشكل واسع في الوقت الحاضر من قبل الباحثين في الكتاب المقدس، أن المفاهيم اليهودية اللاحقة حول الشيطان والجحيم والحياة الآخرة والبعث ونهاية العالم وصورة المخلص، كلها قد اصطبغت بصبغة زرادشتية، بالإضافة، بالطبع إلى المعتقدات التي أثرت في أركان المسيحية. لاهوتياً كما جغرافياً، كانت إيران الجسر بين الشرق والغرب، حيث ساهمت بشكل كبير في حقل الدين.

الزرادشتية دين الثنوية الأخلاقية

نرى من خلال دراسة بنية التجربة الدينية حول العالم أن في تطور الديانة الزرادشتية وجارتها الديانة الهندوسية، أثراً للبيئة والتطور الثقافي في معتقدات ومواقف الشعوب ذات الأصل الواحد. إن لدين زرادشت الأصول نفسها التي لدين الآريين الفيديين. وحيث أن القبائل الهندو - أوربية كانت في ارتحال دائم في بداية الألفية الثانية ق.م، أو ربما أبكر من ذلك، فقد حصل وافترقت في مسالكها في مكان ما قرب بحر قزوين، حيث أن قسماً منهم، وربما الأعظم، قد استمر بالصعود باتجاه وادي نهر جيحون إلى الهند، بينما تغلغل البقية فيما يعرف اليوم بأرمينيا وأذربيجان والوديان الجبلية التي تحف بالهضبة الإيرانية من الشمال الغربي. وقد واكب هذا الانفصال الجغرافي الطبيعي انفصلاً ثقافياً.

في أرض إيران التي يفضل المؤرخون أن يطلقوا عليها بلاد فارس القديمة، كانت الأرض الزراعية قاحلة في معظمها والمناخ جافاً ومنشطاً، وتميز السكان نتيجة لذلك بنوع من العدوانية والواقعية، حيث فرضت الطبيعة عليهم أن يكونوا مزارعين ورعاة حريصين ويقظين. بينما في الجانب الهندي ذي المناخ المشط فقد مالت الحياة إلى الركود كطبيعة جغرافية، ولكنها غنية بشرياً بالاهتمامات الرومانتيكية والفلسفية. كان هناك الكثير من الوقت من أجل إعمال الفكر في الهند، ربما لعدم انشغالهم بأمور حياتية كثيرة. بينما كان الوضع مختلفاً تماماً في الهضبة الإيرانية. حيث كان التفكير والعيش منشغلين بهذا العالم وبالصراع المثير والصعب من أجل البقاء. وأصبحت مبادئ السلوك الأخلاقي أحد أهم اهتمامات الدين، بينما هم يلاحقون وسائل العيش، وقد تلاشى طبع الزهد والتقشف من عقول الناس تقريباً.

لو افترضنا أن آربي الهندي وآربي إيران قد بقوا معاً وعاشوا جنباً إلى جنب في سهول جنوب شرق أوروبا، كما فعلوا ذلك من قبل. هل كان لهذا الاختلاف الكبير أن يظهر كما هو بين الزرادشتية والهندوسية؟ لا جدوى من طرح هذا السؤال. لد عمل الزمن والظروف على جعلهما يتباعداً عن بعضهما. ليس من السهل سرد قصة الزرادشتية فمصادرها ليست واضحة وأصلية كما هو الحال في دراسة ديانة الفيدا. حيث أن كتاب الزرادشتية المقدس، الأفيستا، قد استمر تناقله شفهاً لقرون، ولم يدون حتى القرن الثالث أو الرابع الميلادي في العهد الساساني. وما يحتويه الأفيستا، أن هو إلا تشكيلة من الكتابات شتى تقل أو تزيد دون ترابط. إنه في الواقع بقية من تراث أدبي أوسع بكثير، وقد ضاع وفني منه الكثير. والجزء الأهم من الأفيستا هو اليشنا بالنسبة لنا لأنه يحتوي أناشيد الغاثا لزرادشت وهو مكتوب بلغة محلية قديمة الغائية Gathic، لغة سبقت الأفيستية وذات صلة بالفيدية. هذه الأناشيد هي الوحيدة التي تعطينا المعلومات الجذرة بالثقة عن حياة وفكر زرادشت.

الأجزاء الأخرى من الأفيستا، اليشتات Yashts، تعج بالتعاويد لطرد الشياطين مع تعاليم التطهير. وهناك الأفيستا الصغرى، وهذه كلها لا يمكن الاعتماد عليها كثيراً بسبب تاريخها المتأخر واختلاف نبرتها ونظرتها إلى العالم. بالإضافة إلى الأفيستا يوجد ما يسمى بالنصوص البهلوية المكتوبة باللغة البهلوية التي كانت لغة البارثيين بعد مئتي عام من الحكم الإسلامي لفارس. أهم هذه النصوص هو البونداهشن Bundahishen الذي يصف الخلق وتكوين العالم، بالإضافة إلى الدنكاتا Denkata وهي جمع لأخبار زرادشت المتناقلة. تقدم لنا هذه النصوص أفكاراً عن الزرادشتية المتأخرة.

أفضل منهج نتبعه هو أن نبدأ بما يمكن استدراكه من الديانة الإيرانية قبل زرادشت، بعدها نتناول تعاليم وحياة زرادشت نفسه وأخيراً نطرح الاختلافات المنظورة في زرادشتية العصور اللاحقة.

1- الديانة الإيرانية قبل زرادشت:

ما نعرفه في واقع الأمر عن الديانة الإيرانية قبل زرادشت مأخوذ من الإشارات الصريحة العداء لهذه الديانة في أناشيد الغائثا، والإشارات عصبية التفسير الكائنة في النقوش الكتابية للملوك الإخمينيين، ومن النصوص الأفيسية ما بعد الغائثة.

نحن نعلم، بأي حال، أن الديانة الشعبية للإيرانيين كانت هي نفسها كما يتم التعبير عنها في أسفار الفيدا السنسكريتية الهندية.

لقد عبد العامة قوى معروفة باسم الدايفاس Daevas، تسمية شبيهة بالديفاس Divas وتعني المنورين في الریغ فیدا. وكان هؤلاء مرتبطين بقوى الطبيعة، الشمس والقمر والنجوم والأرض والنار والماء والرياح.

وقد ميّز الكهنة أيضاً الأهوراي أي الأرباب من بين الآلهة الذين صنفوا في مرتبة سماوية علوية، وهم المعنيون بالنظام الكوني. وبهذا الشكل وجد نظام تراتبي للآلهة غير واضح بالنسبة إلينا.

كان من بين الآلهة إنتار أو إندارا، وهو إندرا الفيدي، إلهاً للحرب، المعروف باسم فيريثراغنا Verethragna، الذي دمر فيريثرا Verethra، التنين الذي حجب مياه الأمطار. لكن لم تكن لهذا الإله في إيران تلك الأهمية التي كانت له بين آريي الهند. لقد كان يتفوق عليه ميترا وهو (ميترا الفيدي)، إله ذو شعبية كبيرة، ومشهور جداً على ما يبدو بين الآريين في كل مكان. ويرد ذكر ميترا في وثيقة حثية اكتشفت في آسيا الصغرى تعود إلى 1400 - 1300 ق.م تحت اسم ميدرا Miidra، وقد كان الإله الأكبر عند الميتانيين على ما يبدو. وهؤلاء هم مجموعة آرية سيطرت على المناطق الجبلية المتاخمة لسهول بلاد الرافدين من جهة الشمال. وقد وضعه الآريون في أعلى المراتب. وكانوا يرون فيه واهب الماشية والأبناء، وهو إله النور (ومن ذلك استدل المانويون والإغريق والرومان أنه كان إلهاً شمسياً، وهذا ما يمكن أن يكون صحيحاً)؛ وقد كان رمزاً للأخلاق والحفاظ على الدين. وقد صور في نشيد آخر في الأفيسا الصغرى بأنه الإله

الذي يصلي له الأمراء قبل أن ينطلقوا إلى المعركة. ومن خلال مهمته كحامٍ لحرمة المعاهدات يبدو أنه يعني الميثاق أو المعاهدة. فهو يحرسها حيثما وجد دين باطل.

«جياذ المخادعين ترفض حمل راكبيها. وعلى الرغم من عدوها فإنها لا تتقدم، وعلى الرغم من امتطائهم الجياذ فإنه لا يحرزون أي تقدم. ومع أنهم يركبون العربات فهم لا يكسبون أي مزية. والرمح المرمي من قبل عدو ميترا يرتد. حتى لو تميز العدو رامي الرماح بالمهارة، حتى وصل رمحه إلى جسم عدوه، فإن الضربة لا تؤذي. فالرمح الخارج من يد عدو ميترا تحمله الريح بعيداً».

يظهر بالإضافة إلى ميترا إله يدعى عند الحثيين أوروانا Uruwana، وهو الذي عرفه الإغريق باسم أورانوس، والذي يتطابق مع آرونا الفيدي. إنه إله قبة السماء والرب (=أهورا) حامي النظام الأخلاقي. وقد كان ذا سمات أخلاقية سامية. وسوف نعود إليه ثانية. كما نتعرف أيضاً على مفهوم يقوم عليه نظام العالم، سواء كان طبيعياً أم أخلاقياً، يدعى آشار أو أرتا والذي من صفاته الصدق والحق والعدالة والنظام القدسي. وهو ريتا الفيدي نفسه. ونسمع أيضاً عن التوأم السماوي وهما الناساتيا Nasatya وأسفين Asvins (ويدعيان في الوثائق الحثية ناشا أديناتا Nashaadinata). وقد أرجعهم الفرس اللاحقون إلى كائن واحد من نسل فايو، الريح، مرافق إندارا والذي يتجلى في الطبيعة المزدوجة للريح الطيبة والريح المدمرة، والتي تهب من بدء الخليقة. وعن حاكم الموتى، وهو أول إنسان مات في البدايات الأولى ويدعى ييما (ياما الفيدي Yama) وعن الفرافاشي، أو الآباء، وهم أرواح الأسلاف الحامية. عُبدت هذه القوى الإلهية وغيرها، وقدمت لها القرابين تحت السماء المفتوحة بجانب المذابح بمعاونة من الكهنة، وعادة النار، وجرى التناول الطقسي للشراب المهلوس الذي كان يُحضّر من نبات الهاوما المقدس، ويقابله (السوما الفيدي).

تكتسب عبادة النار عند الإيرانيين أهمية خاصة، ليس بسبب تشابهها مع طقوس النار الاحتفالية في الهند القديمة فحسب، بل نتيجة أهميتها التاريخية في

الزرادشتية حتى الوقت الراهن. الاسم الفيدي آغني Agni (= النار) غير وارد في التراث الإيراني، لكن مما لا شك فيه أنه قد تمت عبادته والابتهاال إليه تحت الاسم الإيراني آتار Atar. وأثناء الطقوس الاحتفالية التي كانت تودق فيها النار الشعائرية ويتم تبجيلها، كان العشب حول المذبح يقدم ويرش بعصير الهاوما ويحول إلى مائدة توضع عليها حصص من القربان من أجل الضيوف الإلهيين غير المرئيين. ويمكن أن يكون القربان من الحبوب، ولكن عادة ما يكون القربان حيواناً. في حال كانت الأضحية حيواناً، كانت تفرك بالبارسوم Barsom، وهو عبارة عن حزمة من الأغصان كانت تعبد كقوة خارقة وتوضع أمام الوجه أثناء عبادة النار المقدسة. كان الطقس الاحتفالي لاستخلاص الهاوما والاستعمال القرباني لهذا السائل المقدس شبيه بالطقس الاحتفالي لعصير السوما في الهند الفيدية. على العموم فإن الإيرانيين القدماء، ولا سيما الذين حرثوا الحقول وأطلقوا ماشيتهم ترعى في البرية قد اتبعوا ديناً لا يلائم أسلوب حياتهم واقتصادهم المتطور. حيث أصبحت التضحية بالحيوانات تشكل عبئاً متزايداً عليهم. وما بدا طبيعياً ومنطقياً للبدو ولا يتضمن خسارة اقتصادية. كان بالنسبة للذين استقروا مكلفاً جداً ولا بد من إصلاحه، وظهر زرادشت ليقدم الحل.

2- حياة وتعاليم زرادشت:

يستحيل التأكد من تفاصيل حياة زرادشت ويصعب أن نغطي الحقيقة كاملة بسبب حالة عدم اليقين التي تحيط بالمدونات. لكن البيانات التي سوف نعرضها ربما قد تتضمن بعض الحقيقة.

تاريخ مولد زرادشت غير محدد أبداً. ويحدد التراث الفارسي ذلك نحو 660 ق.م وهذا التاريخ قد يكون أسبق بثلاثين سنة أو أكثر على مولده الحقيقي. ولكن معظم الباحثين الحديثين يتبنونه رغم الشك في دقته. وهنالك آخرون يجادلون، اعتماداً على المنطق، أن زرادشت قد عاش في فترة أبكر منذ ذلك بكثير، وربما تعود إلى العام 1000 ق.م، أو ربما تتأخر حتى النصف الأول من القرن السادس ق.م.

قضية أخرى محيرة من الصعب التأكد منها وهي مكان مولده. يبدو أنه قد ولد في مكان ما في شرق إيران، لكنه نشط في مكان أبعد باتجاه الشرق. ويتجاسر أحد المصادر الحديثة على تحديد دقيق للمكان الذي بث فيه دعوته، إنه بلاد خوارزم القديمة، منطقة تشمل ما يدعى اليوم خراسان الفارسية وغرب أفغانستان وجمهورية تركمنستان.

وبحسب التراث اللاحق والمدون بعده بفترة طويلة، فقد تلقى تعليمه على يد مؤدب، وتلقى الكوشتي Kusti، النطاق أو الزنار المقدس، في عمر الخامسة عشرة عرف عنه طبعه العاطفي الذي تجلى بشكل خاص بالاهتمام الشديد بكبار السن وبالماشية في زمن المجاعة. في سن العشرين هجر أباه وأمه وزوجته التي اختارها له باحثاً عن جواب عن أسئلته الدينية العميقة.

في سن الثلاثين الحرجة (غالباً هي سن المحنة في حياة العابرة المتدينين) جاءه أول وحي. وقد بالغت الأسطورة في سرد الحدث الأصلي وحوّلته إلى سلسلة من المعجزات الرؤيوية: وبحسب ما يروي التراث فقد ظهرت أول وأهم رؤيا مريضة على ضفاف نهر دايتا قرب منزله، حيث ظهر شخص بتسعة أضعاف حجم الإنسان أمام زرادشت، لقد كان الملاك الرئيس فوهومانا (الفكر الخير). استجوب فوهومانا زرادشت ثم أمره أن ينزع عنه جسده المادي وأصعده كروح منزّهة إلى حضرة أهورامزدا الرب الحكيم والكائن العلي المحاط بملائكته. وبحسب ما تخبرنا المدونات أنه حالما ظهر في المجمع السماوي لم يعد يرى ظله على الأرض وذلك بسبب البهاء العظيم للملائكة المقربين الذين طوقوه. بعد ذلك دعا أهورامزدا زرادشت إلى النبوة، وقام بتعليمه مبادئ الدين الصحيح. وتستمر الحكاية وتخبرنا أنه في السنوات الثماني التالية التقى في الرؤيا بكل واحد من الملائكة المقربين الستة، وفي كل اجتماع كان يضاف شيء جديد إلى أصل الوحي. وفي أناشيد الغاثة التي من المفترض أنها أقوال زرادشت، لدينا مزيد من التفاصيل الأكثر أصالة، موضوعة بصيغة سؤال وجواب بين زرادشت وأهورامزدا.

وبحسب ما يروي التراث فقد بدأ دعوته مباشرة بعد ذلك ولكن دون نجاح. وفي ذروة إحساسه بالخذلان جاءه الروح الشرير أنغرا مابنو وأمره أن يتبرأ من دين مزدا. لكن زرادشت أجابه: لن أتبرأ من دين مزدا الخير، حتى لو قطعت إرباً وفارقني الحياة والروح. بعد ذلك ترك موطنه وتوجه شرقاً قاصداً بلاط أمير آري يدعى فيشتاسبا، وهناك بدأ مع أمل متجدد يجاهد لمدة سنتين ليكسب الحاكم إلى دينه. يعطي فيشتاسبا الانطباع بأنه إنسان نزيه، بسيط وصادق مع نمط الحياة الذي يعيشه، ولكنه كان تحت سيطرة الكاربان المكروهين في الأفيستا، وهم جمع من الكهنة الجشعين. وبسبب طلباتهم الكثيرة من القرابين الحيوانية وأعمالهم السحرية الموجهة لإنبات المحاصيل وحماية الماشية وإبقاء السلاب البدو الطورانيين القادمين من الشمال بعيدين عن المنطقة، وإبعاد التأثيرات الشيطانية المؤذية من كل نوع، فقد عارضهم زرادشت بشدة. ولكنهم استطاعوا أن يزعجوا به في السجن نتيجة الصراع معهم. ولكن وبعد عامين من المعاناة، وامتلاك القدرة على شفاء حصان فيشتاسبا الأسود والمفضل، وبمساعدة زوجة فيشتاسبا هوتاوسا المتعاطفة، استطاع أن يكسب الطبقة الحاكمة إلى دينه.

كان التحول كاملاً وبلا تحفظ، وقد وضع فيشتاسبا كل قوته وراء نشر الديانة. ولقد تبع البلاط بكامله العاهل الملكي إلى الدخول في الدين الجديد. أكبر الأثر. كما كان لتحول شقيقين من النبلاء صاحبي شأن عظيم في المجلس الاستشاري للملك فيشتاسبا دوراً كبيراً، وهما بالاسم فراشا أوشترا وجاما سبا، وقد أصبحا نسيبان لزرادشت في علاقة زواج. قدم الأول ابنته، هوفي، زوجة لزرادشت بينما اتخذ الثاني ابنة زرادشت بوروسيستا زوجة أولى.

انقضت السنوات العشرون التالية، بحسب ما تروي سير التراث اللاحقة والتي لا يعول كثيراً عليها، في نشر الدين بشكل رسمي بين الإيرانيين وفي خوض حربين مقدستين في الدفاع عن هذا الدين، وقد تميز العمل بالهمة والنشاط. وشهدت الحرب الأولى بروز اسفندا كبطل عظيم من خلال هزيمته للغزاة الطورانيين. ولكن غزوة الطورانيين الثانية قد نجحت في بدايتها، هذا إذا صدقت المرويات، وقد وقعت عندما كان زرادشت في السابعة والسبعين

من عمره وقد أدت إلى قتله. ويعلن مدونو الأفستا اللاحقون، بعد ألف سنة من الواقعة، أنه عندما اجتاح الطورانيون بلخ، فاجأ واحد من جندهم زرادشت وطعنه وهو أمام مذبح النار يؤدي الصلاة. سواء حدثت الواقعة كما يروى أم لا فإن موت زرادشت لم يعن أفول الدين. لقد ثبت جذور ديانتته الجديدة عميقاً في الأرض الخصبة للوعي الشعبي الإيراني، حيث كان مقدراً لها أن تزدهر.

التعاليم:

إن الدين الذي جاء به زرادشت كان دين وحدانية أخلاقي فريد. جوهر القول أنه اعتقد أن الشريعة الأخلاقية تتطلب صلاحاً بشرياً صادراً عن إله واحد خير. عندما وعظ زرادشت باسم الإله العلي أهورامزدا، الرب الحكيم، لم يكن قد ابتدع شيئاً جديداً، حيث كان الاسم متداولاً، ولم يكن الإله الذي يشير إليه الاسم مجهولاً في ذلك الزمان. ولم يكن أهورامزدا، مع احتمال القليل من الشك سوى إله الأخلاق والنظام الطبيعي الذي بعده آريو الهند تحت اسم الإله فارونا.

ويبدو أن عشيرة زرادشت قدمت الولاء والطاعة إلى هذا الإله الأخلاقي العلي. على الرغم من أنه لم يعد يحمل اسم فارونا، فإن كثيراً من الباحثين يرونه هو نفسه عبر المظاهر التي عرض من خلالها، (يوصف في الغالب بأنه ملفع بالسموات العظيمة التي هي له رداءً) واستنتجوا أن هذا اللقب التشريفي قد جاء ليحل محل الاسم القديم، تماماً كما هو الحال في لقب الإله روردا الهندي، «شيفا» الذي حل فيما بعد محل الاسم القديم. ويبدو اسم أهورامزدا كعلامة تشريف واضحة تماماً. فكلمة مزدا تعني الحكيم أو تمام النور، وكلمة أهورا هي نفسها آسورا في الفيدية والتي تعني الرب أو السيد، وكان اسماً هندو-أوروبياً يحمله الآلهة البارزون في البانثيون.

وبعد أن وضع نفسه في معارضة تامة للدين الشعبي السائد، فقد أرسى زرادشت لدينه الجديد منظومة حددها بعدة مفاهيم واضحة قاطعة:

أولاً: من البداية تميز بثبات موقفه ورسوخه معتمداً على الوحي الذي تلقاه. وكانت أسافر الغائا مرة تلو الأخرى منطلق إدعائه أن أهورامزدا بذاته قد دعاه ليقوم بالتبشير، وأن الدين الذي تلقاه هو الدين الأخير ودين الحق.

ثانياً: كان ولاؤه المطلق لإله أوحده. وكان أهورامزدا بالنسبة إليه هو الإله الأسمى، بعبارة أخرى، هو سيد الخلق، العلي في قدره، والعلي في احتسابه ليوم القيامة الأخير والذي من خلاله سوف يسحق الشر كله وللأبد، ويثبت الحق والحقيقة. وخلافاً لبعض أتباعه اللاحقين، آمن زرادشت أنه بإرادة الرب العلي مزدا قد ظهر كل شيء إلى الوجود. وكما تخبرنا العبارات التالية من الغائا فإن مزدا هو موجد الظلمة والنور معاً.

من هو بالإحداث موجد الحق في البدء؟

من اختط للشمس مسارها وللنجوم؟

من جعل القمر بدرًا فهلاًلاً فمحاقاً؟

من أرسى الأرض ورفع السماء؟

من أجرى الماء وأنبت الزرع؟

من سخر الرياح تجري بالسحاب؟

أي فنان مبدع أوجد النور والظلمة، النوم والصحو؟

من أوجد الصبح والظهيرة والليل تذكرة لذوي الألباب؟

ربي! يا مبدع كل شيء! أعني على معرفتك من خلقتك، يا خالق الأشياء طراً من الروح القدس.

ثالثاً: امتلك زرادشت مفهوماً كاملاً عن طريقة إتمام أهورامزدا لعمله حيث يعبر أهورامزدا عن إرادته من خلال الروح القدس، سبنتامينو، وعبر وسائط متنوعة للفعل الإلهي، تدعى الكائنات الخالدة القدسية، الأميثاسبيتا. وهذه الأحوال للفعالية الأخلاقية تحمل أسماء مثل: فوهوماننا، الفكر الخير أو الحسن،

آشا الحق، كشاترا القوة أو السيطرة، هور فاتات الرخاء، أرماتي التقوى أو الورع، وأميريات الخلود. آشا (أو آرتا) وهو ريتا الفيدي. وفوهومان هو الوسيط الإلهي الذي هدى زرادشت إلى أهورامزدا في أول وحي أنزل عليه. أما أرماتي وكشاترا وهور فاتاتات وأميريات فهي نعم من أهورامزدا إلى الإنسان وتمثل قوى وحقائق في جوهرها. وهي بأسمائها تمثل صفات وحالات مجردة. غير واضح كيف كان زرادشت يتصور هذه الأشكال. هل ظنها أرواحاً خيرة من الجن من ذات أهورامزدا بكيونتها وفردانيتها، أم أنه قصد أن يقدمها كتجريدات مشخصة. وقدم أشكالاً أخرى من التجليات الإلهية بالآضافة إلى الأمشاسبيتنا مثل سراوشا الطاعة، وخالق الثور أو الروح التي تحمي الأبقار (جيوس أورفا)، وأسماء غيرها، لكن لا أحد من هؤلاء قد تميز ككائن إلهي ذي شخصية مستقلة. في جميع الأحوال فقد بقيت جميعها تابعة لأهورامزدا كوسطاء للتعبير عن ذاته الإلهية. يقدم لنا زرادشت باختصار مفهوماً غنياً عن الإله دون التخلي عن التوحيد.

رابعاً: ولكن، وعلى الرغم من أن أهورامزدا هو الأسمى فإنه ليس بلا معارض. وهذا أحد أركان معتقد زرادشت. هناك في السموات يقف دروج، الكذب، ضد آشا، الحق أو الحقيقة. فالحق يواجه الباطل، والحياة يواجهها الموت. والروح الخير سبيتامينو يعارضه الروح الخبيث أنغرا مينو. ليس غريباً أن تؤكد أناشيد الغائا مراراً وتكراراً على الانقسام الأساسي في عالم الطبيعة وفي حياة البشر ما بين الحق والباطل، وما بين الدين الحق والدين الباطل. لقد بدأ هذا الشقاق في اللحظة التي خلق فيها أهورامزدا العالم ومنح الحرية لمخلوقاته. وعلى حد قوله في الغائا:

«والآن فإن الروحان البدئيان اللذان تجلبا كتوأمين يمثلان الخير والشر في الفكر والقول والعمل. ومن بين الاثنين فإن العاقل يختار الحق، بينما الأحمق لا يفعل ذلك. وعندما ظهر هذان الروحان في البدء أسستا الحياة وعدم الحياة. وفي النهاية سوف يكون الجحيم من نصيب أتباع الباطل والفردوس من نصيب أتباع الحق. ومن اتبع الروح الخبيث فقد وقع في شر أعماله ومن اتبع الروح الخير فله الجنان العلاء».

وأيضاً:

«سأحدثكم عن الروحين في بدء الخليقة، حيث قال الروح القدس لغريمه: لن يكون وفاق بيننا، لا في الفكر ولا التعاليم، لا في الإرادات ولا المعتقدات، لا في الأقوال ولا في الأفعال، لا في النفس ولا في الأرواح».

هكذا مع بدء الخليقة تقابل الروح الخبيث مع الروح الخير الصادر عن أهورامزدا وعارضه، وقد أطلق على الروح الخبيث في العهود اللاحقة اسم «شيطان» (واللفظ كما هو في العربية تماماً).

خامساً: يقوم مبدأ زرادشت الأخلاقي الأول على أن روح كل إنسان هي مركز الجهاد بين الخير والشر. وهذا الجهاد الذي في الصدر ذو أهمية مصيرية. عندما خلق أهورامزدا الإنسان منحه الحرية ليقرر أفعاله، ومن ذلك القدرة على الاختيار بين الحق والباطل. وعلى الرغم من أهورامزدا ينشد دائماً أن يرعى الحق بواسطة روحه القدوس سييتامينو، ومن خلال فوهوماننا، فإنه لم يجعل الإنسان محصناً تجاه إغواءات أنغرا ماينو الشريرة. لذلك المطلوب من كل إنسان أن يتخذ قراره في صدره. ويختار إما الخير أو الشر، والرجل الصالح يختار الحق.

سادساً: الخير والشر غير محددين بوضوح، لكننا لا يمكن أن نتوقع من الغائا، التي هي في الأصل أناشيد مكرسة للعبادة والصلاة، وليست رسائل بحثية لاهوتية، أن تكون محكمة ودقيقة. وتقدم لنا أناشيد الغائا، بأي حال، إشارة إلى الاختلاف المحسوس بين الحق والباطل. فالناس الأخيار بالنسبة لزرادشت هم أولئك الذين قبلوا الدين الحق، والناس الأشرار هم أولئك الذين رفضوا هذا الدين، ولا سيما أولئك الذين استمروا في ممارسة طقوس الديانة الشعبية بالإضافة لعبادتهم للآلهة القديمة المدعوة بالديفا. وقد ربط هؤلاء الديفا مصيرهم، كما يبدو واضحاً، بأنغرا ماينو، الروح الخبيث، لذلك كانت حياة الذين تبعوهم محفوفة بالشر. أناس كهؤلاء لا يجب تجنبهم فقط وإنما مقاومتهم بالسلاح.

وإذا كان من الخير دائماً أن تتكلم الصدق وأن تساعد أولئك الذين يتبعون آشا وفوهوماننا، فإنه من الشر مساعدة السيئ، أو أن تقدم له معروفاً أو هدايا. فالأخيار يحرقون الأرض ويزرعون الحبوب ويغرسون أشجار الفاكهة ويجنون البذور ويستصلحون الأراضي البور ويروون الأرض الجذباء، ويحسنون معاملة الحيوانات ولا سيما البقر، وفي كل ذلك خدمة للمزارعين. وعلاقاتهم الشخصية قائمة على الصدق، فهم لا يكذبون أبداً. والأشجار لا زراعة عندهم، وتلك هي رذيلتهم.

لقد مثل البدو الطورانيون الشر بأسوأ أشكاله. فقد كانوا يعدون لغاراتهم من خلال الصلاة للديفا، آلهتهم، بعد ذبحهم الأثيم للماشية كقرايين على المذبح. وينقضون على الحقول ويدمرون المحاصيل. هذا هو الشر الذي يتوقعه المرء من عبادة الديفا!

والإنسان الصالح يتلو هذه المقاطع من شهادة الإيمان الزرادشتي، لدى دخوله الدين الجديد:

إنني أنكر الديفا

وأشهد بأنني عابد للآله أهورامزدا

مؤمن بزرادشت عدو الديفا ونبي الله

حامد وعابد للكائنات القدسية الخالدة، الأميثاسبيتا

ومعاهد الرب الحكيم على بذل ما استطعت من خير

سابعاً: لم يتبق من طقوس الاحتفال الدينية إلا القليل. لقد تمت تنقية الطقس الآري القديم بالكامل من السحر والوثنية، وألغيت الأضاحي الحيوانية تماماً، وأصبح طقس السكر المصاحب لشرب عصير الهاوما من المنكرات⁽¹⁾.

(1) لم يستهجن زرادشت تأثيرات الهلوسة الناجمة عن شرب عصير الهاوما فحسب، بل أدان الممارسات التي كانت موجودة أيضاً في الطقوس الهندو - آرية وطقوس آسيا الوسطى، حيث كان يجمع العامة بول الكهنة الشاربيين لعصير الهاوما ويشربوه. واضح أن السوما أو الهاوما تسري خلال أجسام الكهنة الذين يشربونها وتخرج مخففة من أجسادهم. وعندما يشرب العامة البول يحسون بتخدير معمم للأحاسيس نتيجة ذلك. ويرد في الأفيسا (ياسنا 48: 10) سؤال زرادشت الساخط: «متى سوف تنبذون بول السكر الذي يخذع الكهنة الناس به؟».

لكن زرادشت أبقي على ظاهرة واحدة من الطقس القديم، وهو طقس النار المقدسة. وقد مر معنا حسب ما يروي التراث أنه تعرض للقتل بينما هو يؤدي صلاته أمام النار المقدسة. وسمعناه يقول في اقتباس سابق من الغائث: «في كل تقدمه لنارك سوف أذكر نفسي بالحق طالما أنا أمتلك القوة لفعل ذلك». ويصرح زرادشت في مكان آخر أن النار المقدسة هي هبة من أهورامزدا إلى البشرية. لكن زرادشت نفسه لم يعبد النار كما فعل أسلافه أو كما فعل بعض من أتباعه فيما بعد. لقد كانت النار بالنسبة له رمزاً عزيزاً لأهورامزدا، ليس أكثر، والتي من خلالها أمكنه إدراك طبيعة وجوهر الرب الحكيم. وهكذا يبدو أن لغته ومنطق محاكمته قد قاداه إلى هذا الإيمان.

ثامناً: في النهاية، ما هي محصلة الصراع الطويل بين الخير والشر؟ وهل سيبقى هناك معارضون لأهورامزدا إلى الأبد؟ وهل سيبقى أنغرا مانيو، الكذاب، يتلي الإنسان ويقوده إلى الضلال؟

مهما تكن الشكوك التي لدى أتباعه اللاحقين حول الموضوع، فإن زرادشت لم يكن لديه أدنى شك بأن أهورامزدا سوف يقتلع الشر مزدهياً بالنصر وذلك في اكتمال دورة الزمن. إنه لا يؤمن أن سلطة الشر أبدية كما سلطة الخير. كان متفائلاً بالمطلق أن الخير هو الذي سيدوم ويهزم الشر في النهاية.

حسب تعاليم زرادشت فإن بعثاً شاملاً سوف يحدث في النهاية. عندها سيخضع الأخيار والأشرار لتجربة النار والمعدن المذاب الذي يجتاح العالم على شكل تيار دافق يطال كل كائن حي. فأما الأخيار فيعبرونه كمن يخوض في نهر حليب دافئ، وأما الأشرار فيحترقون وينجرفون في التيار الذي يفنيهم. وفي هذه الأثناء يكون جند الظلام قد اندحروا أمام جند النور، فيغوص نهر النار إلى أعماق الجحيم حيث لجأ الشيطان أنغرا مانيو ومن بقي معه، فيلتهمهم جميعاً ويتم التخلص من آخر بقايا الشر.

قبل حلول اليوم الأخير تخضع النفوس التي ذاقت الموت إلى الحساب الفردي الذي يقرر الوضع الذي يتبقى عليه إلى أن يحين البعث الشامل. وهذا الحساب يلي

الموت بفترة قصيرة. فكل روح مواجهة الحساب على الجسر الفاصل، جسر شينفات، الذي يمتد فوق هوة جهنم، وفي طرفه الآخر ينفتح على الفردوس. وتتلو على هذا الجسر أعمال الروح. ويؤتى بميزان الحسنات والسيئات، وإذا ما رجحت كفة الأعمال الحسنة على السيئة فإن يد أهورامزدا، تشير صوب الفردوس، ولكن إذا ما رجحت كفة السيئات على الحسنات فإن اليد سوف تشير إلى الهوة تحت الجسر. ويصور عبور الجسر بصورة غاية في الدرامية. فالصالحون الذين اهتمدوا بزرادشت لن يجدوا صعوبة في العبور بينما الطالحون الذين أدنوا بأعمالهم سوف يجدون أنفسهم في وضع لا يمكنهم أن يتجاوزوا من خلاله وسط الجسر.

ونتيجة لصدمتهم بضمائرهم الآثمة فسوف يسقطون بأنفسهم إلى مصيرهم المحتوم. وسوف يستقرون في موطن الكذب الذي هو جحيم الغاثة، مكان يطلق عليه «أردأ الوجود»، وهو مقر «أسوأ الفكر»، إقليم ذو رائحة مقززة، مرعب في فظاعته، وتضج الأصوات الحزينة في أغواره السحيقة المعتمدة، حيث يعاني كل معذب وحيداً هناك. بينما في الجانب الآخر فإن الصالحين سوف يستقرون بعد الجسر العظيم في موطن الأناشيد، فردوس الغاثة المسمى «أفضل الوجود»، مقر «أفضل الفكر» حيث نور الشمس أبدي. ويتمتع الصالحون هنا بنعيم روحي دائم.

لقد آمن زرادشت بصدق أ الدين الخير لأهورامزدا سوف يكسب ما يكفي من الأنصار الموالين ليقعوا الهزيمة النهائية بالشر، وقد امتلك أملاً راسخاً بأن كثيراً من أنصاره سوف يكونون مثله من المخلصين. لذلك لم يكن لديه أدنى شك في انتصار أهورامزدا النهائي.

3- ديانة الأفيستا اللاحقة:

إلى هنا نجد في قصة الإصلاح الزرادشتي ما يدعمها من الحقائق التي زودتنا بها أناشيد الغاثة. لكننا الآن على وشك الدخول في مرحلة من عدم اليقين، حيث أننا بحاجة إلى بحث أوسع ومعطيات إضافية أكثر. لقد اختفت السجلات القديمة نتيجة الاضطراب والفوضى على مدى ألف عام من 300ق.م إلى 700 ميلادي. وربما لن يعاد سد الفجوة القائمة أبداً.

من المستحيل أن نتأكد، عند هذه النقطة، أي الاحتمالين اللذين سنسوقهما أقرب إلى الواقعة التاريخية الحقيقية. المؤلف هنا يؤيد الاحتمال الأول.

1- هل كان الإصلاح الزرادشتي، الذي رفع أهورامزدا إلى مرتبة العلي الأعلى ربما للمرة الأولى في تاريخ الأديان، قد شق طريقه كديانة توحيد أخلاقية وسط أمراء شرق إيران، وبعدها نزلت إلى حوض ما بين النهرين حيث تم تعديلها من أجل أن تتكيف مع الديانات متعددة الآلهة هناك؟

2- هل وُجد إصلاح توحيدي يماثل إصلاح زرادشت في إيران الغربية، من خلال جهود الما جي (المجوس) ونال دعم داريوس وخلفائه من بعده، إصلاح وضع إلهاً خيراً مثل أهورامزدا في تضاد مع أهرimen في معتك كونى بالآلهة الهندو-إيرانية الثانية والشياطين القادمة من الماضي السحيق، وتضمن مفهوماً عن زروان، أو الزمان اللانهائي، الذي كان الموجد أو الأرضية الذي منه أو إليه يعود كل من الإله الخير وأهرimen؟

يفترض الاحتمال الأول أنه عندما دخل الإصلاح الزرادشتى حوض ما بين النهرين وأصبح معروفاً بين الميدين في شمال غرب إيران، كان قد حظى بالدعم المؤثر للمجوس الذين ما تزال هويتهم تشكل لغزاً كبيراً هناك. ربما لم يكونوا من أصل آري، لكنهم كانوا معروفين حتى حدود القدس وأثينا في الغرب، بمهاراتهم في ممارسة فنون السحر، وكلمة ماجيك Magic مشتقة بالطبع من اسمهم. لقد عرفتهم بابل، حتى قبل السقوط المدوي لبابل على يد قورش نتيجة هجوم صاعق.

أما الاحتمال الثاني فيفترض أن المجوس قد قاوموا الزرادشتية كديانة منافسة عندما ظهرت على الساحة، ولكن لدى اقتناعهم بأن مواهبهم ككهنة يمكن استخدامها في تمثل هذه الديانة واستيعابها، عمدوا إلى اعتناقها وأصبحوا على رأس شارحي ومفسري الديانة في عالم ما بين النهرين.

من المعتقد أن قورش الذي استولى على بابل وأنهى الإمبراطورية الكلدانية كان على دين زرادشت، لكنه لم يكن ذاك المؤمن الصادق، لأنه، ولأسباب

سياسية، لدى بسطه سلطته على الكلدانيين فقد اشترى مساندتهم بإظهاره أنه من عبدة الإله البابلي مردوخ. لكن داريوس الأول أو أحشورش من بعده كانا أقل مساومة، لأنهما كانا من عبدة أهورامزدا، الذي يوصف في الكثير من نقوشهم الكتابية بالإله العلي للسماء والأرض. لم يكن دينهما كما هو دين زرادشت المطروح في الغااث. لكنهما آمنا أن أهورامزدا وملائكته المتوسطين المكلفين بإدارة عمله الإلهي وخدمته كانوا إلى جانبهما.

لقد صدف أن العالم كان معلقاً في يد القدر في تلك الفترة. لقد اتجه كل من قمبيز الأول وداريوس وأحشورش إلى غزو العالم. وقد استطاعوا غزو بلاد الإغريق بتسخير موارد الإمبراطورية الفارسية الجديدة الهائلة. وربما تكون كارثة جزيرة سلاميس هي التي منعت الديانة الزرادشتية أو ديانة معدلة عنها من أن تصبح الديانة الأعظم في العالم الغربي.

تقهقر الفرس إلى داخل آسيا الصغرى عام 479 ق.م بعد 150 سنة من ذلك التاريخ أطاح الاسكندر بالإمبراطورية الفارسية. وبقدومه أصبحت الثقافة الهلينية هي التي تلقى الدعم الرسمي. ولم يتراجع نفوذ الثقافة الهلينية حتى القرن الأول الميلادي. وصل الأرشاقيون إلى السلطة في فارس أثناء ذلك. وهم بارثيون من إيران الشرقية يتكلمون لغة تدعى البهلوية. وقد حكموا من 250 ق.م إلى 226 ميلادي؛ وأخفق الرومان في إخضاعهم. أطاح بهم الساسانيون في النهاية وهم قوم من فارس Fars، وقد حكمت سلالته من 226 إلى 651 م. حتى أطاح بهم المسلمون.

خلال هذه العهود الطويلة، سادت زرادشتية معدلة، فقد فيها أهورامزدا تقريباً كامل حضوره لصالح ميترا المتجدد وأناهيئا الأسرة. لقد كان ثمن صعود الزرادشتية الواسع من خلال الإمبراطورية غالباً. هذه الديانة التي كان زرادشت أعظم شارح لها. يمكننا أن نسأل هنا ما هي التغييرات التي حدثت؟

دون التحيز لأي من وجهتي النظر الأنفتي الذكر، فإن الرواية التالية سوف تبحث فيما هو مشترك بين وجهتي النظر، وهو أن الإصلاح الزرادشتي قد ساد في حوض ما بين النهرين وأنه في سيرورة اعتناقه قد خضع لتعديلات كبيرة.

سنراجع الآن هذه التغيرات، وهي تغييرات لا بد أنها تحدث في أي ديانة وتأسست على رؤى نبوية شخصية، ولكنها انتشرت في عصر لاحق في أرض غريبة عن طريق كهنة وملوك.

1- لنبدأ بالتغيرات المبكرة أولاً. فلقد أصبح زرادشت في عيون أتباعه شخصية شبه إلهية تجلى وجودها بظواهر خارقة. مجيئه معلوم وثم التنبؤ به قبل ثلاثة آلاف عام من قبل الثور البدئي الأسطوري، والملك ييما Yima، اللذين حذرا في العصر الذهبي الشياطين بأن هزيمتهم قد دنت. ويإنذار الشياطين المسبق فقد جاهدوا لمنع حدوث ما كانوا يخافونه أشد الخوف. لقد راقبوا بهلع الطريقة التي سوف يولد بها زرادشت. فلقد توحد مجد أهورامزدا مع الأم المستقبلية لزرادشت لحظة ميلادها، وهياها لتحمل بالنبى. وفي الوقت نفسه تم غرس أرومة محمية بفعل إلهي من نبات الهاوما مع روح النبي القادم السابقة لوجوده، الفرافاشي، Fravashi⁽¹⁾، وسوف يشرب والدا زرادشت العصير ممزوجاً بحليب مركز في الوقت المناسب. وقد سمعت الشياطين عبثاً أن تتلف هذا العصير الذي كان يحوي الماهية الجسدية، بروتو بلازما الجسم، التي سوف يتشكل منها الطفل في لحظة الحمل. فرحت الطبيعة بكل ما فيها نتيجة مولده. وفي اللحظة نفسها التي ضحك فيها غالباً، طوقته الشياطين والسحرة المعادين بكل أنواع الشرور والأخطار. وكاد الطفل أن يقتل في مهده، حيث حُرق بنار مضطربة ووطئ حتى كاد أن يموت بقطيع من الأبقار، لكن ثوراً يقود القطيع خرج ووقف فوق الطفل وحماه بالكامل. بعدها نقل إلى كهف ذئاب قتلت صغارها، وكم كانت بليته عظيمة لو لم تسمح هذه المخلوقات المتوحشة لنعجة أن تدخل وترضعه.

(1) الفرافاشي fravashi: نفس الإنسان السابقة لوجوده أو روحه والمرتبطة بالذات العلية أهورامزدا من البدء وتشارك هذه الأرواح أو النفوس مع أهورامدا في طبيعته ونوره الصافي.

وبحسب ما يرويه التراث فإن هذا النوع من المعجزات لازمته في حياته الراشدة، حيث تخبرنا الزرادشت نامة zartusht namah، المكتوبة نحو 1200م اعتماداً على رواية أقدم، عن شفاء فرس الملك فيشتاسبا على يد زرادشت. فلقد حكم على زرادشت بالسجن نتيجة لمكيدة دبرها له النبلاء المعادين (الكافيس kavis) وكهنة الدايفا (الكاربان karbans). بعد ذلك سقط فرس فيشتاسبا أرضاً غير قادر على الحركة حيث دخلت قوائمه في بطنه. أرسل زرادشت رسالة من السجن أنه بإمكانه شفاء الفرس، وتعهده القيام بذلك تحت شرط واحد، هو أن يسبغ الملك نعمة مقابل عودة كل قائمة إلى وضعها الطبيعي. ومثل زرادشت أمام الملك. وكان الشرط الأول أن يسلم الملك بصحة الدين الزرادشتي، وعندما وافق الملك استقامت القائمة الأمامية اليمين. وحالما التزم الملك بالشروط الثلاثة المتبقية، التي هي أن يقاتل ابن الملك اسفندار نصرةً للدين، وأن تتحول زوجة الملك إلى الدين الجديد، وأن تكشف أسماء المتورطين في المكيدة ضد زرادشت وينالوا جزاءهم. استقامت قوائم الفرس المرتعشة على امتدادها وقفز على حوافره بكامل قوته واندفاعه. استطاع زرادشت بضربة واحدة أن يهزم أعداءه ويضاعف المهتدين إلى دينه.

كان تعظيم زرادشت كبيراً في الزمن القديم، حيث أعجب الإغريق والرومان أيما إعجاب بما سمعوا عنه وعن دينه. ويدل على ذلك الإعجاب العظيم بالإشارات العديدة إليه في أدبهم الواسع، وبحقيقة أن أفلاطون كان يخطط للسفر إلى فارس لدراسة الزرادشتية ولكنه امتنع بسبب اندلاع الحرب بين إسبارطة وفارس عام 386ق.م، وذلك بعد وفاة سقراط بفترة وجيزة، هذا حسب ما يشاع.

2- لقد اعترى توحيد زرادشت بعض التغيير. فمن حيث المبدأ وبحسب العقيدة الرسمية للأفيسا اللاحقة، فإن أهورامزدا كان يعبد على أنه الإله العلي الذي لا كفاء له. كان على مستوى من العظمة والقدسية بحيث لا يشبه أو يصور في تماثيل من الخشب أو الحجر. لكنه لم يستمر على هذا المنوال باعتباره الإله الأحد غير المتجزئ. لقد دلفت آلهة الطبيعة عند الآريين عائدة، تلك الآلهة التي أنكرها زرادشت وحاربها، عادت ودخلت في الدين وأحاطت بأهورامزدا وقاسمته النفوذ. وهكذا أصبح فوهوماننا، الفكر الخير، الإله الوصي على الماشية بالإضافة إلى توليه مهام زراعية معينة. وأصبح آشا، الحق، الإله الوصي على النار. وأصبح كشتارا،

المسيطر، رب المعادن. ولأن بقية الأُمِشاسبيتا كانت تحمل أسماء مؤنثة فقد أصبحت من الملائكة الإناث المقربين. فأصبحت أرماتي، التقوى الإلهة الأرض، وأصبحت هورفاتات، الازدهار، إلهة المياه، وأميرتات، الخلود، إلهة النبات.

لكن هذه الكائنات الخالدة القدسية (الأُمِشاسبيتا)، وربما لخاصية معينة فيها تجعلها غير ملائمة للشيولوجيا الشعبية، بدت أقل أهمية من اليازاتات yazatas أو الملائكة التي نعرف من أسمائها أربعين، والتي عادت من الماضي الآري ودخلت الزرادشتية تجر أذيال المجد. وسوف نأتي فيما يلي على ذكر أبرزهم:

أ- أعظمهم طراً كان الإله ميترا. وعلى الرغم من أن زرادشت لم يعط أهمية تذكر لهذا الإله النير، فإن الناس تعلقوا به وتمسكوا، وعاد في نصوص الأفيستا اللاحقة إلى سابق عهده في الشهرة والظهور. ويذكر اسمه بانتظام مع أهورامزدا في النقوش الكتابية للملوك الأخمينيين اللاحقين ومنهم أرتحشتا على سبيل المثال. لاهوتياً كان يتبع أهورامزدا بالطبع، لكنه اكتسب في الدين الشعبي منزلة كإله للنور، ومثيب للصادقين والحافظين الدين، وهو السند الرئيس للمتكلمين عليه لعونهم في الصراع مع قوى الظلام في هذه الحياة والتي تليها. أقرانه هم راشنو، ربما هو الصيغة الإيرانية من فيشنو، وساراوشا، الطاعة، الذي يتولى رئاسة الجسر الفاصل، كما سنرى لاحقاً⁽¹⁾.

(1) لقد أصبح ميترا الشخصية المركزية في ديانة تدعى الميترانية وقد انتشرت في القرن الثاني الميلادي غرباً حتى وصلت إلى بريطانيا، ولا سيما بين الجند الرومان وقد رمز إلى الشمس المنبوعة. وحسب الروايات الأسطورية أنه ولد في مغارة حيث قدسة الرعاة. قام ببعض المعجزات في سن البلوغ، وصعد إلى السماء أخيراً. ولأنه ولد في واحدة من المغاور فإن أتباعه واصلوا عبادته في المغاور الطبيعية أو التي من صنعهم وسميت ميترا يوميات Mithraeums. وقد صور في منحوتات نافرة، نجا الكثير منها، إجلالاً لمأثرته البطولية في ذبح الثور المقدس ليخصب الأرض بدمه، كما صور كشاب وسيم مرتدياً طاقية فريجية ورداءً متطابقاً، وهو جاث على ثور يحزله رقبته. هناك جانب من طقوس التلقين الطويلة المفروضة حيث يقف المبتدئ الجديد تحت منصب حديدي مشبك بينما دم الثور المذبوح ينفسخ على جسده العاري. كانت الميترانية منافسة للمسيحية حتى قمعت في القرن الرابع بعد أن أصبحت المسيحية هي الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية.

ب- أعيدت أيضاً الهاوما، الخمرة المقدسة، باعثة الحياة، الشافية، الجميلة، الجليلة ذات العينين الذهبيتين، ولكن بشكل ملطف. وقدمت الأضاحي الحيوانية لزرادشت، وهذا ما كان يثير الرعب في نفسه خلال حياته.

ج- أشد الآلهة عدوانية وجبروتاً فيري تراجنا Vere Thragna، المعروف لدى آريي الفيدا باسم إندار، قد تقمص عبر أ زمن متعددة في عشر مخلوقات قوية: ثور بقرنين ذهبيين، حصان أبيض، جمل، خنزير بري، كبش بري، صقر، وعل فحل، ربح نشطة، شاب وسيم، ومحارب قيل إن هديته لزرادشت كانت حدة البصر والهمة العالية.

د- ولدنا أيضاً إله الريح فايو Vayu، الذي ظهر تحت الاسم نفسه في الفيدا، وقال الزرادشتيون أنه يحمل طبيعة مزدوجة، خيرة من جانب وشريرة من جانب آخر، ويعود إلى بداية الزمان. فقد حمى الصالحون في ظهوره الخير وصحبهم كريح عطرة فوق الجسر الفاصل إلى الفردوس. وأذى الروح الخبيثة في ظهوره الشرير وخفرها إلى هوة مرعبة في جهنم.

وأحد السمات الغريبة في هذه الزرادشتية المتأخرة هو الادعاء العجيب أن أهورامزدا نفسه يقدم الأضاحي إلى ميترا وأناهيئا، وأن كلاً من أهورامزدا وميترا يعبدان فايو، الريح! وهذا موجود في الياشت، النشيد، 10: 123 و 15: 2-4. ولا عجب أن يعلق أحد الباحثين البارزين قائلاً: «لا بد من الإقرار أن التوحيد قد عانى من عناء شديد، وذلك عندما نجد أن أهورامزدا نفسه يؤدي العبادة لملائكة كهؤلاء».

وهناك أيضاً الفرافاشي. وبحسب تعريف الموسوعة البريطانية لها هي الأرواح الأزلية أو سابقة الوجود. هذه الكائنات التي من الصعب توصيفها نتيجة طبيعتها المختلطة، تبدو في الأساس أنها أرواح الأسلاف التي تحرس الأحياء، وبدورها تتوقع منهم أن يقدسوها. لكن أهميتها ازدادت فيما بعد حتى أصبحت بمقام الذوات العلية. والتي كانت أيضاً الجن الحارسة لكل من البشر والآلهة. وكان يعتقد أن كل إنسان حي لديه روحه الأزلية أو نفسه السابقة لوجوده،

أو العنصر الخالد في النهاية. واعتقدوا أيضاً بكائنات لم تولد وهي الساوشيناط، المخلصون، والتي سترد العالم إلى سابق عهده. وأكثر من ذلك، فإن لكل من الأميشاسبنتا واليازاتا وأهورامزدا روحه السابقة لوجوده! لنحدد أو نحصر ما يعني ذلك وبحدز، فنصل إلى استنتاج أن هذه الفرافاشي هي أجزاء روحانية خالدة من الشخصيات الحية. وهي كما الأرواح البشرية في فلسفة أفلاطون موجودة قبل الولادة وتبقى حية بعد الموت.

لكنها في الزرادشتية المتأخرة تملك وظيفة إضافية وهي العيش كذوات عليا مفصولة عن البشر وترفعهم إلى السماء عالياً وبعيداً عن الخطر. كما أن تقديم الصلاة والقرابين لهذه النفوس الأزلية هي خدمة لا غنى عنها من أجل فعل الخلاص.

وهكذا كان، حيث انتفع الفرس من الفرص المتوفرة خارج نظام التدبير الآري في أن زدودوا مملكة أهورامزدا بآلهة مساعدة، يظهر ذلك في أحد النقوش الكتابية لأرتحشتا الثاني 404 - 358 ق.م، حيث تذكر إلهة أنثى تحت اسم آناهيتا، الطاهرة، لأول مرة. وتقدير أرتحشتا العالي لهذه الإلهة واضح كحقيقة من خلال المنحوتات النافرة التي أقيمت لها في بابل وسوسا وإكبتانا (همدان حالياً)، ودمشق وسرديس قرب أزمير حالياً. إنها من أصول هندو - إيرانية ويمكن مقارنتها بسارسفاتي الفيدية إلهة المياه، لكنها مع الزرادشتين المتأخرين، أصبحت على ما يبدو أحد التجليات الكثيرة التي أخذتها الإلهة عشتار البابلية والتي صادفناها في مناسبات كثيرة. وقد تجلت في هذه الحالة بظهور طاهر. وفي الياشت ترتل لها المدائح بوصفها إلهة المياه المنسكبة من السماء لتخصب الأرض بالثمر في أقاليمها السبعة، رقيقة الخصر هي وواسعة الصدر، وحذاء ذهبي في قدميها. وهي التي تجلب الخصب للنبات والماشية والقطعان. وقد أيقظت في الكائنات البشرية قوى التوالد. شبيهة عشتار هذه قد استقرت نعمتها لا سيما في النساء اللواتي سينجنن بيسر ويتمتعن بغزارة الحليب.

نرى في كل هذا أن التوحيد قد ارتكس إلى التعدد، وهذه حقيقة متكررة وشائعة في تاريخ الأديان. حيث كل إصلاح عادة يعقبه نكوص فيحصل ارتداد عن الأفكار السامية والأفعال النبيلة إلى حالة من التوفيق المريح للعقيدة مع سبل العامة.

3- لقد تطورت عقيدة الشر بشكل متزايد واقتربت من ثنوية أخلاقية كاملة تقريباً. وكما ملائكة الخير فإن الأرواح الشريرة غدت أكثر تشخيصاً مما كانت عليه أيام زرادشت. وقد أصبح أنغرا ماینو، الذي تحدث عنه زرادشت بمرارة، ولكن ليس بكلام ملموس محدود، باعتباره معارضاً منذ بدء الخليقة لنفس أهورامزدا الخيرة؛ أصبح الآن الشيطان الأكبر وقد صار نظيراً لأهورامزدا بطريقة ثنوية. وقد صورت أجزاء من الأفيسا المتأخرة أنغرا ماینو ندأً لأهورامزدا في الضدية ومساوياً له. فقد اعتُبر العالم خلقاً مشتركاً بينهما على سبيل المثال. ويصور أهورامزدا في الفيديفات وهو يروي لزرادشت قصة صراعه مع أنغرا ماینو على خلق العالم، ويصور نفسه يخلق الأقاليم الإيرانية المتعددة واهباً إياها كل فضيلة، ولكن لسوء الحظ، كما يعترف، كان أنغرا ماینو حاضراً أيضاً حيث خلق مضرّة مقابل كل منفعة خلقها أهورامزدا. ومن منافع أهورامزدا القضاء على الصقيع والقيظ والأفاعي والجراد والنمل وفاحشي الثراء والسحرة الأشرار وملاك الأراضي غير الآريين والردائل البشرية والشهوات الجنسية المفرطة والعرافة والشك والجحود وما إلى ذلك، ناهيك عن آثام لا تغتفر كدفن الميت أو طبخ الجيفة، وهي ممارسات تعافها نفوس الزرادشتيين مستقيمي الإيمان. لقد كانت قدرة أنغرا ماینو على الأذى لا حدود لها في الواقع، حيث يعدد الفصل الثاني والعشرون الأمراض التي خلقها أنغرا ماینو والتي تصل إلى نحو 99.999، وهو رقم هائل لبشر تلك الأيام. وكان له ضربته الأخيرة لأنه هو من أوجد الموت.

لقد تضاعفت قوة الشر التي امتلكها أنغرا ماینو بوجود الشياطين الذين خلقهم لمساعدته، مثل آكامانا، الفكر السيئ، وأندرا الذي هو إندرا الفيدي، وناون هيشا، الذي هو ناستياس الفيدي، «التوأم السماوي الذي اختُزل إلى كائن واحد، وساورو وفاورو وزايري وآخرون. بالإضافة إلى هؤلاء كان هناك أعداد لا تحصى من الأرواح الشريرة والديفات الشياطين، كلهم في خدمة أنغرا ماینو. ويجب ألا نغفل دروج، الكذب، الذي يظهر الآن على شكل شيطانة أنثى تفسد التقوى في الرجال، حتى أن أهورامزدا يهتف في أحد أناشيد الياشتا قائلاً: لو لم تقدم لي نفوس المؤمنين الأزلية يد العون.. لأصبحت السيادة من نصيب دروج ولا تنتمي العالم المادي إلى دروج بالكامل».

هذه هي إحدى الطرائق لحل مشكلة الشر ، أن نقول أن الخير كله يأتي من الله ، ولكن الشر يأتي من الشيطان. ولكن التوافق المنطقي يقتضي إذا ما كان الشيطان هو خالق الشر فلا بد أن يكون شريكاً في الأزلية مع الله مع بدء الزمان ، وإلا يكون الله هو الذي خلق الشر من البداية. وقد اعتنق هذه النتيجة المنطقية الحتمية قلة من الزرادشتيين.

4- هنالك حل آخر لهذه المعضلة قدمته الزروانية. فقد عمدت جماعة متنفذة من الماجي (المجوس) في محاولة تجنب الاستنتاج السابق غير المقنع ، إلى تقديم معتقد يعود إلى أوائل القرن الرابع ق.م أنكرته الكتلة الرئيسة من الزرادشتيين. ولكن هذا المعتقد يبدو لنا الآن بمثابة استباق لنظرية فيزيائية حديثة. حيث اقترحوا أن كلاً من أهورامزدا وأنغرا ماینو قد طلعا كتسوامين من أحادية أصل العالم والذي هو زروان (المكان والزمان اللامحدودان ، أو الزمكان)؟ وهكذا أصبح كل من الإله والشيطان متساويين في قدم الأديان. ولكن حتى في هذه الصيغة التي تجسد زروان على أنه الأب لكل من أهورامزدا وأهريمن ، فإن النصر النهائي مقرر ومعلن لأهورامزدا. والوقوف ضد الشر ما زال الواجب الأول لكل إنسان قويم التفكير⁽¹⁾.

5- على الرغم من تصوير صراع الإنسان مع الشياطين في ميدان معركة الحياة الحافل على أنه صراع أخلاقي ، فقد تحول في الأفستا اللاحقة ولا سيما في الفيديفدات إلى صراع ضد المسعى الشيطاني من خلال الرقي والتعاويد السحرية التي يقوم بها الإنسان ، ونتيجة تحول الاهتمام هذا فقد تخصص ساعون مبدعون قدماء في صون الحياة عن طريق السحر شاقين طريقهم إلى دين

(1) يعتقد بعض الباحثين أن فكرة زروان متأخرة عما هو مشار هنا ، مجادلين على أنها قد نشأت في عقول مثقفي الطبقة العليا في العهود الساسانية لكي تقدم جواباً عن الثنوية الزرادشتية يكون مقنعاً للنقاد البابليين والإغريق ، لكن ذلك لم يؤدي إلى سنن دينية واضحة ولا إلى منع سقوط السلالة الساسانية. من جانب آخر فإن عدداً من الباحثين يعتبر أن الفكرة قديمة ، معتقد آمن به الماجي في الواقع قبل عصر زرادشت كما أشرنا في النص.

زرادشت. ولم تقدم الفيديفات تدريباً أخلاقياً وخلقياً لمقاومة نفوذ الشياطين على الإنسان بل توجيهات من أجل استخدام الزمرات⁽¹⁾ شديدة التأثير والفعالة (المانثرات Manthras).

ويمكن مقارنة ذلك بالمانثرات الفيدية والهندوكية، ولكنها هنا عبارة عن مقاطع مأخوذة من غائا زرادشت لاستخدامها كرقى وتعويدات. وقد أصبحت كل نصوص الغائا في الواقع مفيدة أساساً كتعويدات تفوق الوصف في قدرتها، تكرر وتعاد من دون نقصان من قبل رجال ربما يفهمونها أو لا يفهمونها.

بالإضافة إلى الزمرات كان هناك وسيلة فعالة لإبعاد الشر وتجنب ملامسته وهو الذي يدنس كالقطران. كان يتم ذلك من خلال مقدمة عصير الهاوما إراقعة وسكباً. وإلى هذا اليوم كما سنرى لاحقاً، فإن البارس في الهند ما زالوا يأخذون الأغصان من نبات مقدس ويمزجون عصيره مع الحليب والماء المقدس، ويقدم قسم من السائل الناتج سكباً ويشرب الكهنة المسؤولون الجزء الباقي. وما زال هذا الإجراء يؤدي بالطريقة نفسها التي كان يؤدي بها قبل آلاف السنين من قبل آريي الهند على ضفاف نهر السند.

لكن الأكثر بروزاً بين كل ذلك هو وسائل تنظيف الشخص لذاته من النجاسة، وبذلك يتخلص من الأثر الملوث. وبحسب الفيديفات فإن ملامسة جسد الميت هو أعظم مصدر للتلوث، فإذا ما لمس أي إنسان جثة ما، فإنه يجب أن يطهر نفسه على الفور بمطهرات مع ماء، وإذا لم يتوافر ذلك لسبب ما فإنه يستعمل بول البقر. وكانت الجثث وما زالت مصدر دنس بالنسبة للبارثيين القدماء والمعاصرين. لذلك يجب ألا تُدفن في الثرى كي لا تدنس سطح الأرض،

(1) جاء في لسان العرب: قال الجوهري: الزمرة كلام المجوس عند أكلهم. وفي حديث الخليفة عمر في كتاب لأحد عماله في أمر المجوس: وانهم عن الزمرة، قال، هو كلام يقولونه عند أكلهم بصوت خفي. والزمرة صوت خفي لا يكاد يفهم، وأصل الزمرة صوت المجوسي وقد حجا، ضن بالكلام أو لم يفصح، والزمرة صوت الرعد. قال أبو حنيفة: الزمرة من الرعد ما لم يعل ويفصح، وسحاب زمزام، والزمرة: الصوت البعيد تسمع له دويّاً - المترجم.

ولا يجب أن ترمى في الماء لئلا تجعله غير صالح للاستخدام، ولا يجب أن تحرق على محرقة، لئلا تدنس الذهب. كان الميت يوضع، في العهود الأولى للزرادشتية، على فراش من الحجر أو طبقة من الكلس أو يغلق عليه بالحجارة ليبقى معزولاً عن التربة والماء. بينما توضع الجثث، في الوقت الراهن، في أبراج الصمت الحجرية المفتوحة على السماء، حيث تلتهمها الكواسر. ويعتبر أي جزء من جسد ميت حي مثل قلامات الأظافر وبقايا الشعر المقصوص من الرأس أو اللحية. ومحرم البصق أيضاً لا سيما بحضور إنسان آخر.

حتى نفس الزفير يعتبر دنساً، لذلك يغطي الكهنة أفواههم بقطع من القماش أثناء خدمة النار المقدسة حتى يومنا هذا. ومكروهة المخلوقات التي تغذى على لحم الميت مثل الديدان والذباب والنحل، كما الثعابين والضفادع؛ إنها مخلوقات أغصرا مايو الشيطانية. لقد قتل المجوس في العصور الغابرة مئات الآلاف منها كجزء من فعل تعبد وولاء. وتقضي ملاسة أي من هذه المخلوقات التطهير والتنظيف دون تأخير.

يَسِمُ هذا التحول من الاهتمام الروحي الأخلاقي، إلى موجبات التكاليف الطقسية الخاصة بالطهارة، معظم تاريخ الزرادشتية.

6- تطورت الزرادشتية في منحى أكثر من آخر وصارت أكثر تفصيلاً؛ لقد تم توضيح عقدية الحياة الثانية بتفاصيل تصويرية تثير الخيال إلى حد بعيد، حيث وجهت عناية أكبر إلى مسألة الحساب العصبية على الفرد. ومن المفترض ألا يقع هذا قبل اليوم الرابع بعد الوفاة. كان من المعتقد أن روح الميت تمكث عند رأسه وتأمل لمدة ثلاث ليال في ماضيها وفي معتقداتها وأقوالها وأعمالها الصالحة والظالحة. ويتم مواساتها أثناء ذلك، إذا ما كانت روحاً صالحة، بواسطة ملائكة الخير، وتعذب إذا ما كانت روحاً خبيثة على يد الشياطين المحمومة والجاهزة لجرحها لتتلا عقابها. تأخذ الروح طريقها إلى الجسر الفاصل في اليوم الرابع لتقف أمام قضاتها ميتراً وصاحبه سراوشا وراشنو، ويمسك هذا الأخير بالميزان الرهيب الذي يزن الحسنات والسيئات، ويرفع القرار ويصدر الحكم، بعدها تذهب الروح إلى الجسر الفاصل. هنا وعند منتصف الجسر، طبقاً لنص بهلوي يدعى بونداهيشن، وتعني الخلق الأول في اللغة البهلوية، لدينا الوصف التالي.

«هناك شفير ماضي يقف كحد السف... وجهنم تحت الجسر. وتحمل الروح إلى حيث الشفير الحاد. فإن كانت صالحة تحول على طرفه العريض... وإن كانت خبيثة يبقى على الجانب الحاد منه ولا يسمح بالمرور.. وبالثلاث خطوات التي تتقدمها الروح والتي تمثل أفكارها وأقوالها وأعمالها الشريرة، يطاح بها من أعلى الجسر وتهوي في غياهب الجحيم».

ويعصور النص كيف تقاد الروح الصالحة فوق الجسر من قبل الدائنا التي تخصصها والتي هي ضميرها، فتظهر هذا الدائنا بصورة عذراء جميلة، بينما الإنسان الخيث يصطدم بعجوز شمطاء هي تجسيد لضميره السيئ. يقدم لنا نص متأخر هذا الوصف التفصيلي:

«عندما تخطو الروح الصالحة فوق الجسر الفاصل، تهب عليها ريح طيبة الرائحة من الفردوس، ريح برائحة المسك والعنبر، وتبعث تلك الرائحة الفواحة أعظم مسرة تواجهها الروح. بوصول الروح إلى منتصف الجسر ترى طيفاً جميلاً لم ترَ جمالاً يذه.. يواجه الروح الطيف ويكلمه: "من أنت يا ذا الحسن الذي لم أرَ له مثلاً؟" يجيب الطيف: "أنا أعمالك الخيرة. أنا نفسي كنت صالحاً، لكنك بأعمالك جعلتني أكثر صلاحاً". ويطوقه الطيف ويغادر كلاهما بأتم المسرة واليسر إلى الفردوس».

أما إذا كانت الروح روح إنسان خبيث:

«ما إن تخطو فوق الجسر الفاصل حتى تأتيها ريح حروة⁽¹⁾ من جهنم، نتنة بشكل لم يعرفه إنسان في العالم الأرضي. رائحة خبيثة هي من السوء بحيث لا يتحملها كائن. وما إن تصل منتصف الجسر الفاصل حتى ترى طيفاً لم ترى ببشاعته وترويعه، يرعب الروح الخبيثة أعظم مما ترتعب النعجة من الذئب. ويقول الطيف: "إلى أين المفر؟" وترد الروح: "من أنت يا ذو البشاعة والترويع الذي يتجاوز كل بشاعة وترويع في أي كائن، بشاعة وترويع لم أرَ مثلهما في

(1) حروة: ريح كريهة مع حدة

العالم الديني؟" يرد الطيف: "أنا أعمالك السيئة، كنت بشعاً، وجعلتني أكثر بشاعة يوماً بعد يوم. وقد رميتني أنا ونفسك في البؤس والخسران وسوف نجازي إلى يوم القيامة". ويطوقه ويهويان سوياً من على الجسر الفاصل إلى جهنم".

وهكذا أسهب الزرادشتيون اللاحقون في شرح عقيدة معلمهم التي تحدد أن الإنسان نفسه مع وعيه الأخلاقي الخاص به هو من يقرر مصيره المستقبلي.

كان من المعتقد من خلال تلك الروايات المتأخرة أن من تتساوى حسناته وسيئاته يرسل إلى هاميستاكمان، برزخ منسي يقع بين الأرض والنجوم. ولجهنم عدة طبقات كما كانوا يعتقدون، يقع أدناها في أحشاء الأرض حيث بالإمكان القبض على الظلمة باليد من شدة كثافتها، وحيث التثني لا يحتمل. بينما تمثلت الجنة بطبقات متعالية مطابقة للأفكار الخيرة والقول الصالح والأعمال الصالحة، وتقع بحسب الترتيب في أقاليم النجوم والقمر والشمس. وتمر الروح عبر هذه المحطات المتصاعدة حتى تصل إلى أعلى سماء، غاروتمان أو غاروديمان، وهي موطن الغناء، مملكة حيث يستوطن الفكر الخير وحيث تتمتع الروح بنعيم يتجاوز متع الأرض بما لا يوصف، وتبقى هناك حتى يوم النشور ويوم الحساب الأخير لكل الأرواح.

وقد طور الزرادشتيون اللاحقون، في توقعهم لزمن الحساب الأخير، نظرية عن عمر الدهور التي تدوم كل فترة منها ثلاثة آلاف عام. وقالوا أن زرادشت قد ظهر في بداية آخر دهر. وسوف يأتي بعده ثلاثة مخلصين بين الواحد والآخر ألف سنة. أولهم أوشيتار الذي يولد بعد ألف سنة من زرادشت، والثاني أوشيتارماه يولد بعد ألفي سنة من زرادشت، والأخير هو سوشيانس أو ساوشيانط الذي سوف يظهر في نهاية الزمان. وجميعهم سوف يكون زرادشت والدهم، لأنه قيل أن بذور زرادشت قد حفظت بمعجزة في بحيرة في فارس. وبفواصل زمنية مدة كل واحدة ألف سنة سوف تستحم ثلاثة عذراوات وتحبل بالمخلصين العظام، ومع ظهور المخلص الأخير سوشيانس تبدأ دورة آخر الزمان ويبعث جميع الأموات وتخلي الجنة وجهنم من ساكنيها لكي يستعد الجميع للحساب الأخير الذي سيمر على الأرواح كافة.

وسوف يفصل الصالحون عن الأشرار، وينسكب طوفان من السائل الناري على الأرض ويهدر خلال جهنم مطهراً كل الأقاليم بناره المصطلاة، وعلى كل روح حية أن تسير عبر هذا النهر الملتهب، الذي سيكون للصالحين كما الحليب الدافئ لأنه لا توجد شائبة خبيثة فيهم لتحترق. أما بالنسبة للأشرار فإن اللمب المستعر سيأتيهم عذاباً مبرحاً، ناراً مطهرة على قدر شرورهم، ناراً سوف تحرق كل الشر الذي صدر عنهم ولن تبقي إلا الخير فيهم. وفي صراع أخير ونهائي سوف يطيح أهورامزدا وملائكته بأهريمن وشياطينه في النيران الملتهبة حيث يفنون كلية. بعد ذلك سوف يحيا كل الناحبين من المحاكمة النارية سوية في السموات الجديدة والأرض الجديدة في أسمى متعة وسعادة. وسوف يبقى البالغون في عمر الأربعين، والأطفال في عمر الخامسة عشرة إلى الأبد. وسوف يلتئم شمل الأصدقاء والأقارب. حتى جهنم التي أصبحت نقية في النهاية سوف تستعاد من أجل توسيع العالم. ويصبح العالم بكليته أبدياً وخالداً وأزلياً.

4- زرادشتيو العصر الراهن:

بدأت التحولات الكبرى التي تحدثنا عنها في المعتقد الزرادشتي أثناء حكم الملوك الأخمينيين، واستؤنفت بعد عهد طويل من الاضطراب والفوضى، الذي سببه غزو الاسكندر الأكبر في عهد السلالة الساسانية (226-651م). وقد سيطر التأثير الزرادشتي هذه المرة على اليهودية الأرثوذكسية وعلى العرب قبل الإسلام. من بين أولئك قائد قوافل شاب من مكة، كان جليل الشأن في أفكاره. لقد كان هذا الشاب مسكوناً بالرؤى حول اقتراب يوم الحساب كما تنبأ الزرادشتيون واليهود والمسيحيون، حتى أصبح نبياً نذيراً بين مواطنيه اللاهين الهازئين. وبعد فراره من موطنه الأصلي تحول إلى نبي محارب وبتأثيره لم تتحول الجزيرة العربية فحسب، بل خلخل أركان العالمين اليهودي والمسيحي وكادت الزرادشتية أن تختفي.

تأثيرات الفتح الإسلامي:

أدار أتباع محمد فتوحاتهم بسرعة وإحكام يفوقان الوصف، حيث استولوا على سورية عام 636م، وعلى مصر عام 639. وخلال العقد الذي تلا العام 637 كانت قد تهاوت الإمبراطورية الساسانية، وفي عام 651 أو 52 سقط آخر الملوك الساسانيين وقتل، وتلقت الزرادشتية ضربة مميتة إثر ذلك. لكن لم يتبع العرب الفاتحون أساليب شمولية لجبروا الناس على التحول إلى الدين الجديد على مدى قرن أو أكثر من الزمن. وذلك لأن القرآن كان قد نص على أن يُعامل أهل الكتاب بالحسن، وكان الزرادشتيون كما اليهود والمسيحيون أهل الكتاب، في الحقيقة مكتبة كاملة من النصوص المقدسة. لكن الضغط قد حل بعد ذلك ولم يكن العرب مسؤولين بشكل مباشر عن ذلك. مع ذلك قرر عدد كبير من الزرادشتيين مغادرة بلاد فارس خلال مئة سنة من الحكم العربي، وانتقلوا في البداية إلى مدينة نائية على الساحل قرب مدخل الخليج الفارسي، ومن هناك انتقلوا إلى جزيرة قريبة من الساحل الهندي وأخيراً إلى الهند نفسها. وانضمت إليهم جماعات أخرى مهاجرة من الزرادشتيين. وقد سمح لهم أن يوصلوا طقوسهم وواجباتهم الدينية بحرية بين الهندوس المتسامحين الذين أطلقوا عليهم اسم البارس (البارسيين = الفرس). لم يكن شركاؤهم في العقيدة الذين بقوا في إيران محظوظين مثلهم.

الكفار:

لم يطلق زرادشتيو فارس على أنفسهم اسم الكفار، ولكنها صفة ألصقتها المسلمون بهم والتي تعني في معناها الواسع غير المؤمن بالإسلام. لقد أطلقوا على أنفسهم اسم الزرادشتيين أو الباهدينيين التي تعني في البهلوية، أصحاب الدين الخير. ولكن طول الاضطهاد جعلهم يحتفظون بهذه التسمية لأنفسهم ويحجبون نارهم. وتميز ملابسهم بالخشونة واللون الأصفر الأكمد، ويخضعون في آداب سلوكهم لقواعد صارمة. وهم شديداً التمسك بدينهم. وما زال كهنتهم يُرسمون بحسب الطقوس القديمة ويحافظون على النار متوقدة في معابدهم

البسيطة المتواضعة ، ويتبعون قواعد صارمة في تأدية جميع عباداتهم. وعامتهم أوفياء جداً للطقوس القديمة ، ولا يقبلون أي اختصارات في ما يخص الاحتفال الديني وخلع الكسوة على أولادهم مع القميص المقدس: السودر، والحزام المقدس: الكوستي، وهو عبارة عن حزام ثلاثي الضفائر يرمز إلى الفكر الخير والقول الخير والعمل الخير ويلبس كنطاق. ويقومون بطقوس الزواج والجنابة كاملة، حيث تنتهي الجثة إلى برج الصمت لتأكلها النسور. وهم حريصون على اتباع طقوس الطهارة القديمة عندما يتلوثون نتيجة ملامسة أشياء دنسة أو أشخاص دنسين. ولقد عانوا لقرون من الاضطهاد الديني، وجعلتهم معاناتهم كتومين، وأدى بهم كتمانهم إلى شك الآخرين بهم. ولكنهم الآن أكثر راحة مع حكومة أكثر تسامحاً في إيران المعاصرة حيث أزاحت عنهم الحيف وأعادت لهم شرعيتهم الدينية. عددهم الآن نحو 18 ألف نسمة. لكن المرء يتساءل كيف ستؤثر حرمتهم الجديدة في تماسكهم.

البارسيون في الهند:

كان البارسيون في الهند أكثر حظاً من الذين بقوا في إيران. يصل عددهم اليوم نحو 125 ألف نسمة. ويعيش معظمهم في بومباي والمناطق المجاورة. وأي زائر غريب لبومباي سوق يميزهم مباشرة، ليس فقط من خلال بشرتهم الفاتحة نسبياً وملامحهم الآرية فحسب، بل من خلال لباسهم الوقور الذي يمزج بين القديم والحديث. ويلبس الرجال عادة ملابس أوروبية، مع أنهم يلبسون عادة سراويل بيضاء أنيقة على مقاس الجسم. وهم لا يظهرون حاسري الرأس داخل أو خارج بيوتهم ما عدا الأكثر تقليداً للغربيين منهم. وغطاء الرأس الشائع عندهم عبارة عن طاقة لماعة من القماش المقسى ذات ألوان غامقة ومن دون حواف وتميل إلى الخلف قليلاً بعيداً عن الجبهة. وتسدل النساء الساري الهندي الزاهي الألوان فوق ملابسهن الأوربية الطراز ويتجولن بحرية كاشفات وجوههن. بينما يرتدي الكهنة العمامة البيضاء مع لحى غير مشذبة متجمعين في المساءات على رمال خليج المدينة لكي يستقبلوا الشمس الغاربة، ويمجدوا لبضع دقائق المياه المتألقة والمتماوجة جهة الغرب، بحسب الأعراف القديمة.

وهم أثرياء كطبقة ويتمتعون بسمعة حسنة كجالية متعلمة ومنظمة في الهند. ويوصفون غالباً بأنهم أفضل رجال الأعمال في الهند، وبأنهم أهم الصناعيين الأكفاء. ويقال إنهم يسيطرون على أفضل الفنادق وأضخم المخازن ومعظم مصانع القطن والجوت والفولاذ، وعلى خدمات الطيران الحديثة. لا يمكنهم جمع الثروات فحسب، بل إنهم مشهورون بتبرعاتهم السخية والكثيرة. مع ذلك فإنهم في تعاملهم مع غير الزرادشتيين ما زالوا يحافظون على نوع من حماية الذات، نوع من التعامل الرسمي يتسم بالبرود. وهم كما كفار إيران، لا يسمحون للغرباء، مهما كانوا موثوقين، أن يشاركوهم في طقوسهم المقدسة، أو أن يتفجروا على نارهم القدسية وهي تتوقد في معابدهم.

على أنهم بدؤوا في بومباي يبدون اهتماماً في تخفيض أعدادهم. فقد خفضوا ولاداتهم وكانوا من بين الأوائل الذين ألغوا زواج الأطفال متأثرين بالمعايير الأوروبية، وأخروا الزواج عند الذكور والإناث على السواء حتى إكمال تعليمهم العالي. هذه العوامل بالإضافة إلى القوانين التي تحرم الزواج من خارج الجماعة وترفض أن يتحول أي شخص إلى الزرادشتية بقصد الزواج، كل ذلك قد أدى إلى تقلص أعدادهم.

معابد النار:

يتحكم الكهنة بالحياة الاحتفالية الدينية للبارسيين ونظمونها، وهي متوارثة وتعود بأصولها إلى جماعة الماجي (المجوس) القديمة. ويلقب كبار كهنتهم بالدساتير، وكثير منهم رفيع التحصيل العلمي. ومع ذلك فإن المراسم الاحتفالية في معابد النار لا تؤدي من قبلهم، بل تؤدي من قبل جماعة من الكهنة مدربة خصيصاً وتدعى الموبيد، حيث تكون طقوس تلقين المبادئ قاسية ومجهدة، ويحافظون على طهارتهم باستمرار من خلال طقوس التطهير. ويحفظ هؤلاء الكهنة نصف الأفيستا عن ظهر قلب دون فهم أي كلمة منها لأن تعتبر بمثابة اللغة الميتة الآن. وهم في ذلك لا يختلفون كثيراً عن المتعبدين العاديين الذين يحفظون أيضاً معظم نصوص الأفيستا المقدسة ويرددونها أثناء أداء السنن الدينية الرسمية.

لا يمكن تمييز معبد النار، في كل من إيران والهند، عن أي مبنى من الخارج لدى مشاهدته من الشارع. لكن المتعبدين يعرفون أن النار محفوظة في الداخل، وأنه من الأفضل عدم إثارة فضول الغريب بمظهر خارجي واضح. وفي إيران يمكن أن يكون المعبد مجرد غرفة في ركن هادئ من دار. أما في الهند فإنه يخصص كامل البناء عادة لحفظ النار وممارسة الطقوس الدينية الرسمية. ولا تتساوى جميع المعابد في مستوى القدسية في الهند. حيث يعتبر بعضها الذي يحتوي على أقدم نار وأطهرها هو الأقدس. وقضية تطهير النار هي ملمح زرادشتي بارز وتلقى اهتماماً غير عادي. ويجب أن تتضمن أقدس نار ست عشرة ناراً مختلفة، جميعاً مطهرة وتناج طقس معقد وطويل. ويتم الحصول على نار كهذه من النار التي يحرقون بها الجثة، حيث توقد قطع خشب صندل كبيرة لإحراق الجثة. بعد ذلك ومن فوق اللهب ومن دون ملامسته تمسك ملعقة معدنية مثقبة ثقوباً صغيرة وتحتوي على رقائق من خشب الصندل، وعندما تشتعل هذه الرقائق يحصلون على نار جديدة. وتكرر هذه العملية إحدى وتسعين مرة بمصاحبة ابتهالات مرتلة.

ويمكن الحصول على نيران أخرى مطهرة بدرجة أكبر أو أقل وباستعمال الملاعق من خلال نار متوقدة نتيجة صاعقة، أو من نار ناتجة عن حجر القديح، أو من نيران معابد الأوثان، أو من نيران معامل التقطير أو من المنازل. ويحضر الكهنة الستة عشر ناراً مطهرة في النهاية حيث ينقلونها سوية في مرمدة لتستقر في حجرة النار في المعبد، مع الانتباه إلى وجود قطعة القماش الواقية على الفم لكي لا تتلوث النار.

وتوضع النار في وسط غرفة داخلية في إناء يشبه المبخرة يقوم على عمود قاعدته أربعة أرجل. وتلقم النار بقطع من خشب الصندل على الدوام من قبل الكهنة المختصين والمكلفين بذلك مع وجود قطعة القماش على أفواههم طوال الوقت، بينما هم يقومون بواجباتهم في حجرة النار لمنع أي نفس زفير يصل إلى النار بشكل مباشر ويلوث اللهب الطاهر. ولا يجوز أن يسعلوا أو يعطسوا وهم قريبون من النار تحت أي ظرف.

يأتي المتعبدون فرادى، وفي أي وقت يرغبون. ويغسل الفرد الأجزاء المكشوفة من جسده في المدخل ويتلو صلاة الكوستي بالأفيسيتية، بعد ذلك يخلع

حذاءه ويتقدم حافي القدمين عبر القاعة الداخلية حتى عتبة باب حجرة النار، حيث يقدم للكاهن تقدمته من خشب الصندل والنقود، ويتلقى مقابل ذلك مغرفة من الرماد من المرمدة المقدسة، ويفرك به جبهته وجفنيه، ويتلو صلواته وهو منحني صوب النار، ليس للنار لأنها مجرد رمز. بعد ذلك ينسحب متراجعاً بهدوء ووجهه للنار حتى يصل حذاءه فينتعله ويعود إلى منزله.

وأهم زيارة لمعبد النار هي في رأس السنة البارسية الجديدة. يستيقظ المتعبدون باكراً في هذا اليوم، فيستحمون ويرتدون ملابس جديدة ويذهبون إلى معبد النار ليتعبدوا. وبعد تقديم الصدقات للفقراء، يمضون بقية يومهم في تبادل المباركات وفي إقامة الولائم.

على الرغم من أن زرادشت قد حرم شرب الهاوما وطقس استخلاصها في عصره، فقد عاد هذا الطقس في العصر والسكب والشرب ولكن بشكل مخفف. ونتيجة لضياح هوية النبات الأصلي والاعتقاد أنهم قد وجدوا نباتات تحمل الخواص نفسها وهي نباتات من جنس الإفيدرا Ephedra والتي يقوم الطقس عليها الآن عصراً وسكباً وشرباً، حيث يعصر لب هذه النباتات والتي يظن أنها من النباتات التي كانت تنتج الهاوما. وتنتج العصرة الأولى وتمزج بالماء المطهر وعصير براعم الرومان المهروسة. أما العصرة الثانية من الهاوما فتمزج مع الحليب والماء. يعتقد الزرادشتيون أن شرب العصير من قبل الكهنة المختصين أولاً ومن بعدهم المتعبدين بعد أن يعرضوها للنار، بأنهم يمكن أن يشاركوا الآلهة الحياة الأبدية ولكن شرط الإيمان بذلك.

هذه الممارسات البارسية مستقاة في العموم من الأفستا اللاحقة وليس اعتماداً على ديانة زرادشت نفسها، وهذا واضح من خلال الدراسة الموجزة للطقوس الاحتفالية السنوية. وهناك عيد لتكريم الإله ميترا الذي موطنه الشمس، والذي يوصي المخلصين له بالصدق والصداقة والمحافظة على الإيمان. ويقام عيد وحيد على شرف فارفادين Farvadin الإله الذي يرأس الفرافاشي لزيارة مواطن أنسالها لترحب بالمتعبدين الذي يحضرون المراسم الاحتفالية الخاصة بالموتى على التلال أمام أبراج الصمت. ويبقى عيد آخر لتكريم فوهوماننا الذي

يعتبر حامى الماشية. ويتعامل البارسيون مع الحيوانات معاملة خاصة تتميز بالرفق الشديد أثناء هذا العيد. وتقام أعياد أخرى لإحياء ذكرى أوجه الخلق الستة: السماء والماء والأرض والأشجار والحيوانات والإنسان.

أبراج الصمت:

تقدم الداخمات أو أبراج الصمت⁽¹⁾ طريقة لاثقة للبارسيين للتصرف بموتاهم دون تلويث تربة سطح الأرض أو الماء بالجسد الفاسد. ويتكون الداخما عادةً من أرض حجرية محاطة بجدار دائري من القرميد أو الحجر. وترصف الأرض بالحجارة مع حفرة في الوسط. والدخما ثلاثة مستويات، المستوى الأعلى للرجال والأوسط للنساء والأدنى للأطفال. تحمل الجثة إلى الداخما بواسطة ستة رجال، ويمشي وراءهم المشيعون وجميعهم يلبسون الأبيض. بعد إلقاء النظرة الأخيرة على الميت تحمل الجثة إلى داخل البرج وتوضع في حفرة سطحية على استقامتها ومكشوفة جزئياً من خلال شق طولي كامل للثياب باستخدام المقص، وتتابع العملية كالتالي:

«حالما يغادر حاملو الجثة البرج، تنفض الكواسر من مواقع مراقبتها حول الجدار، وخلال نصف ساعة لا يبقى من الجثة غير الهيكل العظمي. تجف العظام سريعاً، ويعود حاملو الجثة ويدخلون على البرج بعد بضعة أيام ويرمون بالعظام في الجب المركزية».

ويتم اختيار أبراج الصمت على قمم تلال في أرض خلاء وذلك لأسباب وجيهة. ويوجد سبعة منها في المناطق المجاورة لبومباي حيث الوفيات المتواصلة تجذب الكواسر باستمرار. في المناطق الأخرى من الهند حيث عدد البارسيين قليل كما في كلكتا، توجد صعوبة في جذب الكواسر في الوقت المناسب. وعند الجماعات التي هي قليلة العدد جداً وحيث لا يوجد داخما، فإن الدفن يتم في توابيت رصاص أو في حجرات حجرية أو إسمنتية.

(1) الداخما في الفارسية المعاصرة تعني القبر أو الضريح - المترجم

الفصل الثاني

ماني وامانووية

تأليف: Gherardo Gnoli

J.G.Daves

ترجمة: عبد الرزاق العلي

ماني

ماني هو نبي المانوية ومؤسسها: ديانة غنوصية تأثرت بالمسيحية واليهودية والزرادشتية والبوذية. ولد ماني سنة 216م قرب مدينة طيسفون الواقعة على الطرف الغربي من نهر دجلة في إقليم آشور ستان البارثي في بلاد الرافدين. وقد سمي بالبابلي، حيث أعلن نفسه «رسول الله المبعوث من بابل»، والنطاسي القادم من أرض بابل». ولكنه لم يكن من أصول بابلية، حيث كان والداه إيرانيين. كان والده فاتك⁽¹⁾ من همدان وأمه مريم⁽²⁾؟ كانت من أسرة نبلاء ذات صلة قرابة بالسلالة الأرشاقية الملكية. ربما يكون أصل اسمه سامياً. أما الاسم الهليني الذي عرف به أي مانيخيوس فهو تحوير للاسم الآرامي «ماني حياة» أي ماني الحي. لُقّب ماني أيضاً ب«مار» وتعني السيد باللغة الآرامية، أو «ماري» وتعني سيدي في السريانية. واسمه في الصينية، موموني، وهي ترجمة ل«مار ماني»، وتعني السيد ماني.

إن البيئة الغنية والشديدة التنوع، التي أمضى فيها ماني سنين شبابه، تفسر لنا الطابع التوفيقى لديانته، حيث وجد عدد هائل من الديانات المختلفة في بلاد الرافدين - في القرن الثالث الميلادي: طوائف غنوصية، وجماعات باطنية خاصة، ومدارس فلسفية ودينية جمعت بين الفكر الإغريقي وعلم الفلك الكلداني. بل أكثر من ذلك، فإن بابل والأقاليم المجاورة لها، والتي كانت جزءاً من الإمبراطورية البارثية، ومن منظور سوسيوثقافي، قد تميزت بحضارة مدنية متطورة جداً إذا ما قورنت بالهضبة الإيرانية خاصة. وقد ارتبطت بابل بعلاقات تجارية قوية مع المناطق المحيطة بها: الإمبراطورية الرومانية في الغرب وفي الشرق، آسيا الوسطى والصين والهند.

(1) ذكر ابن النديم في الفهرست عن محمد بن إسحق اسمه: ماني بن فتق بابك بن أبي برزام.

وكذر الشهرستاني في الملل والنحل اسمه: ماني بن فاتك الحكيم.

(2) ذكر ابن النديم اسم أمه: ميس، ويقال أوتاخيم، ويقال مريم.

وقد أثر انتشار الغنوصية في ذلك الزمن أيضاً في محيط أسرة ماني. كان والده متأملاً دينياً يبحث عن الخلاص من خلال تطهير النفس والعرنان الذي يقود إلى التحرر. وقد التحق بجماعة عرفت باسم المغتسلة، نسبة إلى طقوس التعميد التي كانت تمارسها. وكانت تُمارس عبادتها في محيط معبد وثني، وذلك بحسب الموسوعي ابن النديم. هذه الجماعة تعففت عن ممارسة الجنس واتبعت نظاماً غذائياً قاسياً محرمة اللحم والخمر. وبحسب التراث، فإن تحول فاتك قد جاء عندما كانت امرأته حاملاً بماني، ابنها الوحيد. ونستطيع اليوم أن نعرف على هذه الجماعة، بأنها فرقة مسيحية يهودية من المعمدانين الذين تبنا هذه العقيدة في القرن الثاني الميلادي، وقد انتشرت بشكل رئيس عبر نهر الأردن، ثم انتقلت إلى سورية وفلسطين وبلاد الرافدين. وبحسب ابن النديم، فإن مؤسس هذه الطائفة هو الحسح⁽¹⁾ الذي يطلق عليه الباحثون في الهرطقة المسيحية إلكساي Elkesai ويدعى في مخطوط كولون الذين ينسب إلى ماني ألكاسايوس Alkhasaios.

لا بد أن تبقى هذه الحقائق في الذهن ونحن نحاول إعادة تركيب المناخ الروحي الذي تربى فيه ماني الشاب. لكننا سنقع في خطأ جسيم إذا ما اعتبرنا أن العنصر اليهودي - مسيحي هو العامل المقرر في تشكيل مستقبل رسول بابل.

(1) ما زالت هذه الكلمة تثير اللغظ في كل اللغات التي نقلت إليها فإذا عدنا إلى ابن النديم فحسب الطبقات التي بين أيدينا نرى أنه في طبعة دار المعرفة 1994 ورد ذكر الحسح تحت طائفة المغتسلة: «ويقولون بالاغتسال، ويغسلون جميع ما يأكلونه ورئيسهم يعرف بالحسح، وهو الذي شرع الملة». أما في طبعة دار الكتب العلمية الطبعة الثانية 2002 فجاء: «يقولون بالاغتسال، ويغسلون جميع ما يأكلونه. ورئيسهم يعرف الحسح، وهو الذي شرع الملة». وجاء في طبعة طهران ص 404 المحسح. أما في طبعة فلوجل الألمانية فقد أوردت اسم من وصفه ابن النديم برئيس الطائفة على أنه الحسح، وليس الحسيح، وطبعة فلوجل هي المعتمدة لدى الباحثين. وقد أثار خلو الاسم من أحرف العلة والنقاط بعض التكهانات في تفسيره وذهب بعضهم إلى أنه «الحسيح»، وحدث التحريف بفعل النسخ.. إلخ. وأورد كتاب المسيحية الأوائل والمؤرخون القدامى اسمه بصيغ متباينة باللغة اليونانية - المترجم.

ولا يجب أن نستبعد أيضاً عناصر أساسية بالأهمية نفسها، منها على سبيل المثال: المحيط الديني والثقافي الشديد التنوع في بلاد الرافدين في تلك الفترة، والذي كما نعلم، سمح بولادة حركات دينية كهذه ومنها المندائية. لقد تضافرت الأصول اليهودية للمندائية، هذه الطائفة التي حافظت على وجودها إلى الآن في جنوب إيران (العراق)⁽¹⁾، مع المعتقدات التي تأثرت بقوة بالغنوصية الإيرانية. كما إننا لا يجب أن نهمل حقيقة تأثير الشنوية الإيرانية في كل من معلمي الغنوصية الكبيرين مرقيون بنطس المتوفى نحو 160م، وبرديصان الرها (154-222م)، حيث أسس كل منهما مدرسته.

انضم ماني إلى ديانة المعمدانيين، المغتسلة، في سن الرابعة، وجاءه الوحي وهو في الثانية عشرة، وبالتحديد في الأول من نيسان عام 288م، وكان ذلك بعد عامين من سقوط سلالة الأرشاقيين وبداية حكم أرشير مؤسس السلالة الساسانية الفارسية. وقد أتاه الوحي عن طريق ملاك يدعى التوم والتي تعني التوأم، ويترجمه ابن النديم بالقرين وهو من اللغة النبطية. وقد أمره التوم بهجر الجماعة، ولكن عليه تأجيل ذلك حتى يبلغ سن الرشد ويقتدر. في سن الرابعة والعشرين وبالتحديد في 19 نيسان 240م. وبعد تتويج شابور الأول بن أردشير ملكاً بسبعة أيام، تلقى ماني أمراً ملائكياً ليظهر إلى العلن ويبلغ رسالة الدين الصحيح. لكنه لم يحقق النجاح في دائرته الضيقة. فبعد منازعات من النافذين في جماعته تركها بصحبة أبيه واثنين من الأتباع. لقد أصبح الآن رسول النور، الذي تقمص فيه البارقليط أو الفارقليط من أجل إنجاز مهمة الرسالة الكونية ليقدم الخلاص والأمل للبشرية المعانية جمعاء. وبسبب القيود الصارمة في الطقوس والتشريعات لجماعة والده لم تكن تلك الجماعة قادرة على استيعاب الروح الجامعة والمعادية للطقوس في الرسالة الجديدة. فالطهارة لا تأتي، كما أعلن، من التعميد أو الاستحمام أو الاغتسال، لكنها تأتي من خلال فصل النور عن الظلمة والحياة عن الموت، والماء الجاري عن الماء الراكد.

(1) إضافة - المدقق.

لقد اتخذ الدين الجديد رؤياه الأساسية من الثنوية الراديكالية ذات الأصل الإيراني. وقد وضع ماني مخططاً محكماً لخلق كنيسة قائمة على عقيدة نبوية وكونية، وفي وعي مضاد وغير منقوص للتقاليد الاصفائية السائدة إلى الشرق وإلى الغرب من امتداد الإمبراطورية الساسانية. من وجهة نظر ماني، فإن هذه التقاليد الاصفائية جاءت نتيجة التفسيرات الزائفة والمنحرفة للرسالات الأصلية لأنبياء الماضي العظام مثل بوذا وزرادشت ويسوع، الذين دعوا جميعاً إلى الحق، كل واحد منهم في بقعة واحدة من العالم وبلغة واحدة. بينما هو - ماني خاتم الأنبياء - قد جاء برسالته للعالم أجمع، وبلغة تبليغ سوف تُفهم في كل اللغات، وهذا ما سيثبت تفوق كنيسته.

لقد كرس النبي ماني كامل حياته للعمل الرسولي الذي أدّاه بحيوية خارقة، مستفيداً من وسائل تواصل لاءمت بشكل واسع انتشار الرسالة ودعوتها: لقد قام بكتابة نصه بنفسه موضحاً بالرسوم. وقام هو شخصياً بإنجاز الصور الفنية والجرافيكية، والكتابة بخط جميل، وكل ذلك كان في غاية الإتقان. وقد استمرت سمعته كمصور عظيم لقرون لاحقة. وقد قام حوارايوه وأتباعه بما قام به ماني نفسه أثناء نقل مخطوطاته. لقد كان من الملح والضروري حفظ الدين في صيغة مكتوبة، وترجمتها إلى أكبر عدد من اللغات في عصره، وذلك من أجل تسريع انتشاره. لم يفعل بوذا وزرادشت ويسوع ما فعله ماني، لأن آخرين هم الذين كتبوا أناجيلهم، وهذا ما أدى إلى الخلافات وسوء الفهم والتشوهات والأخطاء. لقد كان ماني مجدداً أيضاً فيما يخص اللغات الإيرانية، ولا سيما الفارسية الوسيطة والبارثية، وذلك من خلال استخدامه للأدوات اللغوية بطريقة جديدة. لقد أصلح في الواقع منظومات الكتابة الصعبة لهذه اللغات، والتي لم تكن تملك العدد الكافي من الرموز، بالإضافة إلى استخدام عدد هائل من الرموز الكتابية الآرامية. وقلص بشكل كبير المسافة بين الكتابة ونظام النطق في اللغة، وجعلها أسهل لاستيعاب اللغة الحية المكتوبة، مبتعداً عن الكتابة المقطعية ومستعياً عنها بالأبجدية السريانية الشرقية.

كتب ماني القسم الأكبر من مؤلفاته باللغة الآرامية الشرقية وليس باللغة الإيرانية، وقد كتب بالفارسية الوسيطة كتابه الشابورقان وأهداه إلى شابور الأول. تشتمل مؤلفاته القانونية على الأعمال التالية: الإنجيل الحي، وكنز الحياة، وسفر الأسرار، والرسائل، وسفر الجبابرة، والمزامير والابتهالات. وخارج الأعمال القانونية يوجد كتاب الصور، وهو ألبوم من اللوحات الملونة أراد منها توضيح المبادئ الأساسية في عقيدته، بالإضافة إلى الشابورقان الذي بقي خارج القانون نتيجة الأحداث المأساوية التي أثرت في العلاقة بين النبي والسلالة الحاكمة. وكل ما تبقى من أعماله هو شذرات هنا وهناك ونصوص اقتبسها بعض المؤلفين الآخرين وجداول بالمناقشات التي تداولوا بها.

ما نعرفه من هذه المؤلفات، وما يمكننا استنباطه من الشروحات المعتمدة في المانوية، يجعلنا نفرّ أن ماني كان شخصاً واسع الثقافة، فلقد درس بالتأكيد الأناجيل الأربعة الرسمية ورسائل بولس، إضافة إلى الرؤى المنحولة مثل: رؤيا آدم، وشيث، وإخنوخ، ونوح. والأعمال المنحولة مثل أعمال يوحنا، وبطرس وبولس، وأندراوس. وقوق ذلك كان توما الرسول الذي ذهب للتبشير في الهند يعتبر نموذج المبشر الرسولي العظيم بالنسبة إلى ماني. ويبدو أنه كان على اطلاع على مؤلفات برديسان الفلسفية والشعرية، حيث يتحدث عنه في كتاب الأسرار، وعلى كتاب نبوءات فيشتاسبا. بالإضافة إلى كل ذلك فقد كان ماني على اطلاع كامل على التراث الزرادشتي، على الرغم من أن القليل منه كان قد دوّن في تلك الفترة، وعلى الرغم من التغييرات التي طرأت على الديانة الزرادشتية بتأثير الماجي (المجوس). فيما بعد وأثناء رحلاته التبشيرية احتك بكثير من التقاليد الحية. ولا يوجد أدنى شك أنه قد وجد الفرصة لدراسة بوذية المهايانا.

كانت المهمة التبشيرية الأولى لماني باتجاه الهند، حيث سافر على طول سواحل فارس ومكران ودخل بلوشستان والسند بين سنة 240-242. استطاع

أثناء ذلك استمالة ملك طوران⁽¹⁾ البوذي وحاشيته حيث اعتنقوا الدين الجديد. ساهمت هذه المهمة التبشيرية الأولى في اختراق المجال البوذي، وربما في الفوز على الدين المسيحي الجديد الذي أسس له الرسول توما. وتخيرنا مخطوطة الـ «كيفاليا» القبطية عن عودة ماني إلى فارس وبابل في السنة التي اعتلى فيها شابور الأول العرش خلفاً لوالده أردشير. وأثناء رحلة العودة استمال ماني جماعات كثيرة من فارس إلى دينه الجديد بين 242 و 244م، ومن شوشة وميسان بين 245 و 250م. استطاع ماني المثل أمام الملك شابور من خلال مهرشاه وفيروز شقيقي الملك، اللذين دخلا في دين ماني. انضم إلى الحاشية الملكية نتيجة ذلك ومنح صلاحية الوعظ بحرية على امتداد الإمبراطورية بين عامي 250 - 255م. وقد كتب أثناء ذلك الشابورقان وهو في رفقة الملك في حملته ضد الإمبراطور الروماني فاليريان 255 - 256م. وارتحل ماني بين عامي 258 - 260م في شمال شرق إيران وبارثيان وخراسان ناشراً دعوته. بعد ذلك استقر في منطقة Weh-Ardakhir على الضفة الغربية لدجلة، وتفرغ من أجل تنظيم كنيسه، والعمل على رسوماته وتدوين رحلاته التبشيرية. بعد فترة عاود الترحال حتى 270م حيث وصل إلى حدود الإمبراطورية الرومانية وبالتحديد إلى المقاطعات الشمالية الغربية التي كانت تحت السيطرة الساسانية.

ولأنه يعود الفضل في انتشار دين النور إلى شابور فقد أهده كتاب الشابورقان، ربما على أمل أن يؤدي هذا إلى أن تبني الطبقة الحاكمة العقيدة الجديدة كديانة رسمية للإمبراطورية، وذلك كجزء من برنامجه السياسي الكوني.

كان موت شابور نحو 272م الخط الفاصل لبداية سقوط ماني وديانته. حيث إن هرمز 273 وبهرام 273-277، الإمبراطورين اللذين خلفا شابور لم يكونا على دين زرادشت فحسب، بل خضعا أيضاً إلى التأثير المتزايد لرجال الدين الزرادشتيين، الماجي، برئاسة كاهن متعصب يدعى قيردير، صاحب مخطوطات مهمة تم الحفاظ عليها لوقت طويل.

(1) طوران: مقاطعة في شمال بلوشستان تقع جنوب كونا الحالية على الحدود الباكستانية الأفغانية، المترجم.

تزايدت ردود فعل الماجي، الذين كانوا متوجسين من نجاح ماني المتزايد، وأصبحوا أكثر عنفاً تجاه الدين الجديد، ونجحوا في استمالة الإمبراطور بهرام إلى جانبهم. لم يعد باستطاعة ماني إكمال رسالته أو السفر إلى المقاطعات الشرقية من إمبراطورية كوشان، فقد سبقه أمر ملكي يأمره بالعودة إلى جنديسابور في سوسة حيث كان يقيم الملك، وبعد إخضاعه لاستجواب مذل بتحريض من فيردير، حيث اتهم باستمالة أمير أسمه بات إلى ديانتته، حكم الملك بهرام على ماني بالموت. وبحسب التراث فإن استنطاق ماني قد استمر لمدة شهر مع عذاب شديد، مات ماني بعدها وهو مقيد بالسلاسل. وقد حدث ذلك على الأرجح عام 277م في عمر الستين تقريباً.

إن ما بقي من ذكرى ماني بعد ذلك ملفت للنظر. فقد اعتبره الزرادشتيون والمسيحيون والمسلمون فيما بعد على أنه مهرطق لا مثيل له في التاريخ، وقد استمر لقرون هدفاً لحقد عنيد.

Gherardo Gnoli

المانوية

إن العقيدة التي جاهر بها ماني وطريق الخلاص الذي أبانه هو شكل من أشكال الغنوصية. جذور هذه العقيدة نشأت في الأصل في النصف الأول من القرن الثالث الميلادي في بلاد الرافدين الخاضعة للإمبراطورية البارثية في ذلك الوقت. وكانت تلك المنطقة تعج بالمدارس الدينية والفلسفية الناشطة، ولا سيما المسيحية منها واليهودية والزرادشتية. وقد أظهرت الطوائف والملل في هذه المنطقة تأثيراً بهذه المدارس إلى هذه الدرجة أو تلك، مع احتفاظها بتوجه غنوصي واضح.

وكانت الهيلينية منتشرة ومتجذرة في بلاد الرافدين، كما في سورية المجاورة، ولا سيما في المراكز الحضرية ذات الأصل السلوقي. وبما أن إقليم بلاد الرافدين كان الأكثر انفتاحاً على التبادل التجاري والثقافي من بقية أقطار الإمبراطورية البارثية. فقد كان الأقرب إلى التشبع بالتوجهات التوفيقية والاصطفائية⁽¹⁾، الثقافية منها والروحية. لم تكن المانوية غنوصية بالمعنى الضيق للمفهوم، بل كانت ديانة غنوصية كونية. الديانة الكونية الكبرى والوحيدة التي برزت من التراث الغنوصي للشرق الأدنى. ولم تنجح مدرسة غنوصية كما نجحت المانوية. ولم يكن لديانة أخرى هدف، كما المانوية، أن تؤسس لديانة كونية بحق، تأسست وترعرعت عن طريق روح رسولية مقدامة.

وكما في كل الحركات الغنوصية، تعتقد المانوية أن المعرفة هي التي تقود إلى الخلاص، ويتحقق ذلك من خلال انتصار النور الخيّر على الظلام الخبيث.

(1) الاصطفائية: نظرية لاهوتية تقول إن الخلاص بالمسيح مقصور على النخبة فقط وتعني أيضاً عقيدة دينية بأن اللطف الرباني مقتصر على المصطفين من العباد.

وكما في الغنوصية بالعموم، فإن المانوية متشعبة بالفكر التشاؤمي الراديكالي العميق فيما يخص العالم الذي يبدو أنه تحت سيطرة القوى الشريرة. ومن خلال الرغبة القوية في تحطيم السلاسل التي تقيد المبدأ الإلهي النير المحبوس في عالم المادة والجسد، فإن المعرفة هي التي تقودنا إلى الخلاص، وذلك من خلال إدراك الممتمي الجديد إلى الدين أن روحه ما هي إلا ذريرة نور متماهية مع الإله المنزه الذي لا يدركه عقل.

الأدب المانوي ومصادره:

لم يبق إلا القليل من الأدب المانوي المتنوع. ونحن نعرف عنه بشكل عام من خلال عناوين بعض الأعمال والتي ينسب سبعة منها إلى ماني نفسه، بالإضافة إلى بعض الشذرات الباقية والمقتبسة من قبل مؤلفين آخرين كانوا يكونون العداء للمناوية. هناك بعض النصوص التي وصلت إلينا كاملة تقريباً، مثل الإنجيل الحي الذي ترجم من السريانية إلى الإغريقية، ومن كتاب كنز الحياة وصلنا ما اقتبس منه أوغسطين والبيروني، وهناك كتاب الأسرار الذي نعرف بعض أبوابه عن طريق ابن النديم، بالإضافة إلى بعض الفقرات التي حفظت في مؤلفات البيروني. وهناك الأطروحة وكتاب الجبابة والرسائل، الذي قدم لنا بها ابن النديم كشفاً إضافياً إلى المزامير والأدعية. تنسب كل هذه الأعمال إلى مؤسس الدين، وهناك شذرات مبعثرة ونادرة منها، بقيت محفوظة في نصوص مانوية وجدت في طرفان⁽¹⁾ في آسيا الوسطى والفيوم في مصر. وهناك عملان ينسبان إلى ماني ولكنهما خارج القانون وهما كتاب الصور وكتاب الشابورقان الذي أهداه إلى الملك شابور الأول. وكانت الغاية من كتاب الصور توضيح الموضوعات الأساسية في العقيدة بطريقة سهلة وواضحة حتى لأولئك الذين لا يجيدون القراءة. وكتاب الشابورقان وهو الكتاب الوحيد الذي كتبه ماني

(1) طرفان: مدينة في غرب الصين حالياً، تركستان الصينية سابقاً، عند الجزء الجنوبي من نهر تيان شينا، كانت حاضرة الويغور ومركزاً لحركة ترجمة كبيرة أدت إلى وضع الخط الويغوري قيد التداول - المترجم.

بالفارسية الوسيطة (لأن ماني كان يكتب عادة باللغة السريانية أو الآرامية الشرقية) يناقش مسائل علم الكون وعلم أصل الإنسان وعلم الآخرة. ونعرف منه شذرات حفظتها لنا مخطوطات طرفان، ومقتبسات للبيروني حول موضوع خاتم النبوة.

إن أعمال رسل ماني معروفة لنا أكثر من أعمال ماني نفسه. وذلك من خلال النصوص التي اكتشفت في طرفان نحو بداية القرن العشرين، وفي الفيوم بمصر عام 1930. وذلك بالإضافة إلى مخطوط كولون، وهو ترجمة يونانية عن أصل سرياني تعود إلى القرن الخامس الميلادي، ولدينا أيضاً بالقبطية كتاب المواعظ وكتاب الكافاليا. وفي جنس التراثيل لدينا المزامير القبطية وكتب التراثيل الإيرانية من طرفان، والتراثيل الصينية التي وجدت في تون هوانغ. ولدينا أيضاً المختصر الجامع لعقائد وشرائع بوذا النور ماني، الذي وجد في تون هوانغ أيضاً.

بهذا الشكل تكون مكتشفات القرن العشرين قد أظهرت لنا ولو جزئياً أدباً متميزاً ببلاغته وقيمه الأدبية، وبمتانة ورقة حساسيته الشعرية، ولا سيما في مزاميره وتراثيله، ومخطوطات تحدد بشكل جوهري صورة المانوية التي كان الباحثون قبل نهاية القرن التاسع عشر يعيدون بناءها اعتماداً على مصادر غير مباشرة.

ولا تزال هذه المصادر غير المباشرة تحتفظ بقيمتها وتساهم بإعادة تركيب المانوية بشكل متوازن من الناحية التاريخية والاعتقادية. وهي مؤلفات عديدة وجميعها من مؤلفين معادين: وهم أفلاطونيون جدد ومسيحيون وزرادشتيون ومسلمون. فلدينا مصادر إغريقية من الكاتب اسكندر نيكوبوليس وصولاً إلى كتاب أعمال أركيلاوس Acta Archelai، ومصادر لاتينية من ماريوس فكتور يوس إلى أوغسطين. ومصادر سورية من أفراهاط وأفرام السريانيين السوريين في القرن الرابع الميلادي إلى تيودور بارقونية في القرن الثامن. ومن مصادر باللغة الفارسية الوسيطة والبهلوية من نصوص في الدينكارد وتعني تشريعات الدين، إلى فصل من كتاب الحل الحاسم للشكوك، وهو بحث في علم اللاهوت التأويلي الزرادشتي في القرنين التاسع والعاشر. ومن مصادر إسلامية عربية وفارسية، من اليعقوبي في القرن التاسع والشهرستاني في الثاني عشر وأبي الفداء وميرخواند في القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

لقد كانت مؤلفات أوغسطين والبيروني وابن النديم وأعمال أركيلاوس Acta Archelia هي الأساس في الدراسات المانوية حتى أعيد اكتشاف مخطوطات الأدب المانوي في القرن العشرين. ورغم أن الوضع قد تغير بشكل كبير. ويعود الفضل في ذلك إلى المكتشفات الأكثر حداثة، فإن روايات بعض المؤلفين المعادين للمانوية ما زالت ذات أهمية كبيرة، لا سيما إذا ما جرت دراستها بالتوازي مع تلك النصوص المانوية، والتي تبحث في موضوعات متطابقة أو متشابهة. وقد أصبح التمييز أيسر بين تلك النصوص المكتوبة بحمية المجادل والمبرر بين تلك النصوص التي تحتوي معلومات دقيقة وعقلانية تجاه المعتقدات المانوية. بعض هذه المصادر يتمتع بمصداقية عالية، لا سيما عندما تقدم حقائق قيمة متوقعة. مثال على ذلك رسالة التأسيس لأوغسطين، وعلم نشوء الكون المانوي لتيودور بارقونيا، بالإضافة إلى بعض المقتبسات والمقتطفات للبيروني وابن النديم.

العقائد الأساسية:

تولي العقيدة المانوية عظيم الأهمية لمفهوم الثنوية الراسخة الجذور في الفكر الديني الإيراني.

الثنوية:

مثل علم نشوء الكون الزرادشتي الذي عرفناه من خلال نصوص متأخرة نسبياً في القرن التاسع، فإن الثنوية المانوية قد قامت على عقيدة الأصلين أو المبدئين: وهما النور والظلمة، وثلاث مراحل للتاريخ الكوني: وهي المرحلة الذهبية قبل امتزاج الأصلين، والمرحلة المتوسطة أو الممتزجة وهي مرحلة العصر الحالي، حيث تتصارع قوتا النور والظلمة من أجل السيادة النهائية على الكون، والمرحلة الأخيرة حيث يتم فصل الممتزج، وبالتالي الفصل بين أتباع الخير وأتباع الشر، ويكون هذا زمن الإصلاح ورد الاعتبار، حيث ينفصل القطبان عن بعضهما، الخير والشر. ويتجلى ذلك في الكتب المقدسة التي ألفها ماني بنفسه، حيث تكلم بوضوح عن الأصلين والمراحل الثلاثة. والأصلان هما

النور والظلمة، والمراحل الثلاثة هي الماضي والحاضر والمستقبل. حصلنا على هذه المعلومة من شذرة من نص صيني، وهذه العقيدة التي يشير إليها أوغسطين وهي البداية والوسط والنهاية، وذلك في بحثه ضد المانوية تحت عنوان: ضد فيليكس وضد فاوستوس. كما ويتم التعبير عنها بوضوح في نص صيني آخر: «لا بد أن نفرق أولاً بين الأصليين. إن الذي يرغب في الانضمام إلى هذا الدين لا بد أن يدرك أن أصلي النور والظلمة من طبيعتين مختلفتين كلياً. وإذا لم يستطع أن يميز ذلك فكيف له أن يمارس العقيدة؟ كما أنه من الضروري أن يفهم المراحل الثلاث: وهي السابقة والمتوسطة واللاحقة. في المرحلة السابقة لم تكن السماء والأرض قد وجدت بعد هناك، فقط النور والظلمة وكل منهما منفصل عن الآخر. وطبيعة النور هي المعرفة، وطبيعة الظلمة هي الجهل. وهما متعارضان في كل حركة وركون. اقتحمت الظلمة النور في المرحلة الوسيطة، واندفع النور إلى الأمام طارداً الظلمة إلى الوراء. ونتيجة لذلك دخل النور نفسه في الظلمة وهو يعمل بكل ما يستطيع لطردها. وخلال هذه الكارثة العظيمة اكتسبنا النفور والقرف الذي يقودنا بدوره لفصل أرواحنا عن أجسادنا. وفي الموطن المضطرب يبرم العهد على محاولة النجاة».

«الكارثة العظمى» استعارة ترمز إلى الجسد، والموطن المضطرب هو العالم الموجود، الذي يُرعى كبيت مشتعل ينجو منه الإنسان عن طريق الفرار. ويتابع النص: «تتحقق المعرفة والهداية في المرحلة الأخيرة، حيث تعود الحقيقة والزيف كل إلى أصله. فقد عاد النور إلى النور العظيم والظلمة عادت إلى كتلة الظلمة. ويعود المبدآن إلى أصلهما».

والأصلان ليسا محدثين، ولا شيء مشترك بينهما، إنهما ضدان غير قابلين للتحويل ولا بأي حال. فالنور هو الخير المتساوي مع الله. والظلمة هي الشر المتساوي مع المادة. ولأن الخير والشر قد نشأ في وقت واحد فقد حُلّت مشكلة أصل الشر بطريقة راديكالية محسومة (وهي المشكلة المستعصية في العقيدة المسيحية).

لا يمكن إنكار الشر كوجود، إنه في كل مكان، وهو أبدي، ويمكن هزيمته بالمعرفة المنجية (=الغنوص Gnosis) التي تقود إلى الخلاص عن طريق فصل النور عن الظلمة.

تذكرنا الطريقة التي يتمثل بها الأصلان هنا بالروحين البدئيين في المفهوم الزرادشتي، وهما سيبتامايانو وأنغراماينو، الضدان في كل شيء، واختيارهما بين الخير والشر، بين آشا الصدق ودروج الكذب، وهو نموذج الاختيار نفسه الذي يجب أن يتبعه الإنسان. إن القيمة الأخلاقية للثنوية المانوية ليست أقل متانة، على الرغم من أن جوابها عن مسألة الشر قائم على نموذج غنوصي. لقد رفض المانويون اعتبار أهورامزدا وأهريمان المكافئين البهلويين للروحين البدئيين، بمثابة شقيقتين يعارض أحدهما الآخر. ويصرح النص الويغري: «وإذا ما جاهرنا مرة أن خورموزتا (أهورامزدا) وشيمنو (أهريمان) هما شقيقتان، أحدهما الأخ الأصغر والثاني البكر.. فإنني أندم على ذلك.. وأرجو المغفرة على هكذا خطيئة».

وبهذا القول فإنهم لا يعارضون ثنوية الغاثا بقدر ما يعارضون ثنوية الزروانية التي حطت من مكانة أهورامزدا إلى مستوى أنغراماينو، والتي أحلت زروان محل أهورامزدا ومثلته بالزمان اللانهائي، وهو فوق المعادلة الثنوية. من المهم أن نلاحظ هنا كيف أن المانويين أعادوا أهورامزدا إلى دور مركزي في دراما الخلاص وفي المقاربة الغنوصية لمفهوم الإنسان الأول protos anthropos أو الإنسان القديم، واعتبروا أن زروان هو أحد الأسماء. الاسم الإيراني الآخر كان سروش رب العظمة وإله نور السماء العلي وإله الصدق، وهو يعتبر أحد طرفي المعادلة الثنوية. الأسماء في الطرف الضد هي إبليس والشیطان وأهريمن وشيمنو وهيولي والمادة والشر والأركون العظيم وأمير الظلام.

وبدلاً من التأمل الميتافيزيقي فإننا نجد في أصل الثنوية المانوية تحليلاً صارماً للشرط الإنساني، تشاؤمية معممة على كل أشكال الغنوصية والبوذية. وبمجرد أن الإنسان يتقمص فإنه يعاني، إنه فريسة الشر، ونساء، نساء لطبيعته

النورانية طالما هو نائم ويعميه الجهل في سجن المادة. وطالما بقي الأصلان ممزجين فإن كل شيء ما هو إلا ضياع وعذاب وموت وظلمة: «حررتني من هذا العدم السحيق، من هو الضياع المظلمة التي هي مجرد عذاب وأذيات حتى الموت، وحيث لا منقذ ولا خدين. ومحال الخلاص في هذه الدنيا، فكل شيء ظلام.. ولا شيء سوى السجون، ولا مخرج». (شذرة بارثية)

هذا الموقف التشاؤمي تجاه العالم وتجاه الحياة قد لازم المانوية طوال تاريخها، وازداد حدة نتيجة المواجهات المريرة، وغالباً العنيفة، بين أتباعها وأتباع الديانات التي ترسخت رسمياً في إمبراطوريات الشرق والغرب، والذين لم يروا في المانويين إلا جماعة هدامة لم يستطيعوا أن يروا شيئاً خيراً في عالم مليء بالرعب والشر والظلم. وربما كان ذلك أيضاً سبباً مهماً للاضطهاد الشرس الذي عانوا منه، ورفضهم الامتثال للأعراف والممارسات التقليدية القائمة. وهذا ما ساعد أيضاً على جلب اللعنة على ماني والمانوية.

المعرفة طريق للخلاص:

هنالك ميزة أساسية في المانوية هي غنوصيتها، التي هي مزج للدين والعلم في حالة من الصوفية. لقد حاولت المانوية أن تقدم تفسيراً كونياً للعالم، ولم تكون تؤمن أن مجرد الإيمان والدوغما وسيلتان فعالتان في البحث عن الخلاص. بل العكس هو الصحيح، فقد كانت عقيدة الخلاص المانوية مبنية على المعرفة. لذلك نتفهم كيف أن أوغسطين قد اعترف أن أكثر ما شده بالتحديد هو هذا الجانب من المانوية في سنوات الالتزام بها من 377 حتى 382م. أي الوعد بأن تحرر الإنسان من سلطة الإيمان والتراث، وبالتالي العودة إلى الله، هي ببساطة عن طريق قوة العقل.

لم تقبل المانوية بالتراث كما هو في العهد الجديد أو في الكتب الزرادشتية (مخطوطة، كيفاليا 7) دون التمييز أولاً بين ما يعتبر صادقاً وأصيلاً فيها، وما هو في رأيهم قد حصل ببساطة نتيجة التلاعبات والإقحامات الخادعة التي أتى بها الحواريون الجهلة. حجة ماني فقط هي الجديرة بالثقة، حيث أنها مبنية على العقل

ومستقاة من الوحي. ودون ماني بنفسه وبعناية فائقة وبقصدية المدقق كل تعاليمه من أجل ألا يسمح بأن تحرف تعاليمه أو تشوه. لذلك يتباهى المانويون في عدم تأكيد أي حقيقة دون برهان منطقي أو عقلي مقنع، ومن دون فتح أبواب المعرفة أولاً.

في النهاية كانت معرفة كهذه بمثابة تذكرة وصحوة وإدراك. إنها معرفة للذات الحقيقية، وفي الوقت نفسه هي معرفة لله. فالنفس هي من جوهر الله، وشرارة من النور وقعت في إसार المادة في امتزاج مبهم. وهكذا يكون الله هو المخلص والمخلص⁽¹⁾ في آن معاً. وهو المبدأ المنزه والنير، وهو النفس أو العقل (نوس nous). إنه الجزء الأسمى في أنا الإنسان المتغربة في الجسد، وهو موضوع فعل المعرفة: معرفة أين نحن، ومن أين أتينا، وإلى أين نحن ماضون. لقد نسي الإنسان طبيعته التي هي مزيج من نور وظلمة، روح ومادة. إن قوة المعرفة المنيرة تجعله يفهم طبيعته الخاصة وطبيعة الكون ومصيرها. لذلك فإن هذه المعرفة هي علم كوني، يؤلف بين علم اللاهوت وعلم نشوء الكون وعلم أصل الإنسان، وعلم الآخرة. إنه يتضمن كل شيء، الطبيعة المادية بالإضافة إلى التاريخ. والعقل يستطيع أن ينفذ إلى كل شيء: «لا يجب أن يؤمن الإنسان حتى يرى الشيء بأم عينيه». (كيفاليا 142).

أساطير علم نشوء الكون وعلم أصول الإنسان:

يبدو من المفارقة أن نجد العقيدة المانوية المتأسسة على العقل الذي يشاد بقدرته وجلاله، وقد تم التعبير عنها بلغة الأسطورة الحافلة بالأشكال والصور المثقلة بالألوان القائمة. تبدو في الحقيقة ميثولوجيا هذه العقيدة التي ابتدعها ماني بنفسه عقليةً وتأمليةً ومجازيةً بطبيعتها: إن الأساطير المانوية تخدم هدف توضيح الحقيقة فيما يخص دراما الوجود بشقيه الكون الأكبر والكون الأصغر. وتحقق هذه الاساطير غايتها بمساعدة الصور شديدة التأثير، والتي في معظمها مأخوذة من الإرث الميثولوجي للتراثات السابقة - حقيقة قد أمدت العقيدة بثقل وحجة

(1) المعنى هنا أنه بما أن روح الإنسان التي يعمل الله جاهداً من أجل تخليصها هي شرارة من نوره وقبس من ذاته، فإن الله بطريقة ما يعمل على تخليص ذاته - المحرر.

عظيمين - مع استخدام الشخصيات الإلهية بشكلها الإلهي والشرطاني، والتي هي مألوفة ولو جزئياً للمخيلة الشعبية. ولأن تعاليم ماني كانت موجهة إلى شعوب الأرض كافة، فإن الممثلين في المسرحية العظيمة بإمكانهم أن يتخذوا أسماء مختلفة في بلدان مختلفة مستنبطة من البانيشونات المحلية، وهذا ما يجعلها أيسر على الفهم. وهكذا فإن الميثولوجيا المانوية هي بمثابة ألبوم صور عظيم مرتب في تتابع يهدف إلى إيقاظ ذكريات الماضي الحافلة بالخبرات والبصائر الثاقبة التي ستفقد إلى المعرفة. ولا نستغرب إذاً أن ماني الذي كان مشهوراً بلوحاته استخدم كتاباً مصوراً عنوانه الصور لإيصال عقيدته، وكذلك فعل حواريوه من بعده خلال أنشطتهم التبشيرية.

ميثولوجيا كهذه لا بد أن تمتلك مفاتيح تأويلها. وأول هذه المفاتيح هي الفكرة الحاضرة المسيطرة، عن الروح التي حلت في عالم المادة والتي سوف تتحرر بواسطة العقل: نوس.

ثانياً: لكي نفهم ما يوصف عادة على أنه غرابة في الأساطير المانوية (أكل لحوم البشر، والممارسات الجنسية المصاحبة لذلك، والتهام المادة لنفسها بفعل تدمير ذاتي)، علينا أن نضع في ذهننا مفهومين: الأول الفكرة الهندو - إيرانية عن المساواة بين الروح، والنور، والبذرة (التي في داخل الإنسان، والتي عن طريقها ينتقل عنصر النور من جسد إلى آخر بواسطة التقمص). والثاني هو تصفية واستخلاص النور من جسد إلى آخر بواسطة التقمص). والثاني هو تصفية واستخلاص النور من خلال آلية الهضم عند المجتبيين (أي عند النخبة المعدة للخلاص)⁽¹⁾. وهذه العملية هي النموذج المصغر لعملية تصفية واستخلاص العناصر النورانية التي سرقها الإله الديميرج⁽²⁾ وأولاده في بداية الزمن. وهنا فإن

(1) يعتقد المانويون بأن بعض الأطعمة، مثل البطيخ الأصفر، تحتوي على عنصر النور أكثر من غيرها، ولذا فإن النخبة المختارة للخلاص تعتمد إلى أكلها - المحرر.

(2) الديميرج هو خالق العالم، ويدعى بالأركون العظيم وهو إله أدنى من الله العلي الذي لم يتدخل في خلق هذا العالم المادي الناقص - المحرر.

حجة المفهوم الأول هي أن النور يقيم في البذرة، وعن طريق التوالد ينتقل من جسد إلى آخر مكابداً دورات الميلاد والموت (أي السمسارا بالسنسكريتية)، وفق مبدأ التناسخ، وهي عقيدة من أصل هندي اعتمدها ماني محوراً مركزياً في منظومته. أما حجة المفهوم الثاني، فهي أن المعدة تشبه إنبيق الكيميائيين، ومن خلالها يستطيع المجتوبون (أو الصديقون) الذين وصلوا إلى درجة عالية من الطهرانية، أن يستخلصوا النور الموجود في الطعام من خلال دارة مزدوجة من التصفية. وهذه الدارة الصغيرة تشبه الدارة الكبيرة على مستوى الكون، حيث تقوم الأجرام المنيرة باستصفاء النور الحبيس في مادة العالم⁽¹⁾.

تقوم أسطورة الأصول المانوية على عقيدة الأصلين: النور والظلمة، ومراحل الخلق الثالث، وقد تجسد الأصلان في «العظيم الأول» و «أمير الظلمة» أثناء المرحلة الأولى من الوجود، كل منهما منفصل عن الآخر وقيمان بالترتيب: الأول في الشمال والثاني في الجنوب. إنهما مفصولان بحدود بين مملكتيهما. يحاول أمير الظلمة (الذي يُعبّر عن المادة المضطربة غير المنظمة) أن يخترق مملكة العظيم الأول، وهنا تبدأ المرحلة الثانية حيث يقرر العظيم الأول محاربة أمير الظلمة فيحدث تجسيدا من ذاته، أم الحياة، والتي بدورها ولدت الإنسان القديم. غير أن أمير الظلمة يقهر الإنسان القديم ويفترس أبناءه الخمسة. ولكن نهم وجشع أمير الظلمة يسببان له الانهيار، لأن أولاد الإنسان القديم الخمسة كانوا بمثابة السم داخل معدته.

يردُّ العظيم الأول على ذلك بخلق كائن آخر هو «الروح الحي» الذي يعادل الفارسي ميترا. يواجه الروح الحي والإنسان القديم شياطين قوى الظلمة. وهكذا

(1) وعلى حد قول ابن النديم في الفهرست فإن الأجزاء النورية ترتفع في درب الحجرة إلى فلك القمر، فلا يزال القمر يقبل ذلك من أول الشهر إلى النصف فيمتلئ ويصير بدرًا، ثم يؤدي إلى الشمس حتى آخر الشهر. فتدفع الشمس إلى نور فوقها في عالم التسبيح، فيسير في ذلك العالم إلى النور الأعلى الخالص. ولا يزال يفعل ذلك حتى لا يبقى من أجزاء النور شيء في هذا العالم - المحرر.

يبدأ فعل الخلق المادي: فمن أجساد الشياطين تنشأ السماء والجبال والأرض، وأخيراً ومن جزء من نور محرر تنشأ الشمس والقمر والنجوم. يخلق العظيم الأول بعد ذلك كائناً ثالثاً يدعوهُ الرسول، والذي يجسد العقل، ويدعى أيضاً واهمان العظيم، إله الفكر (المعادل لفوهوماناً). فيستنهض الرسول عذراوات النور الاثني عشر، حيث يظهرن عاريات أمام الشياطين، الأمر الذي يدفع الشياطين إلى فعل القذف الجنسي لرؤية جمال كهذا. وهكذا تتحرر عناصر النور التي امتُصت وسُجنت فيهم منطلقاً. وتمنح البذور المنثورة على الأرض الجافة الحياة لخمس أشجارٍ: وبهذا الشكل يكتمل خلق العالم.

يحدث خلق العنصر البشري وفق ما يلي: حبلت الشيطانات، والفضل في ذلك يعود إلى تدبير من الرسول، وأنجبت مسوخاً، وابتلعت هذه المسوخ النباتات لتمتص النور الموجود فيها. بعد ذلك ومن أجل احتباس النور بطريقة أكثر أمناً، فإن الظلمة (المادة) تتجلى في هيئة آز⁽¹⁾ الذي هو تجسيد للشبق، وتدفع الشيطان آشاغلوم والشيطانة نمراثيل إلى التهام المسوخ، ثم إلى التناكح، فيلد منهما الزوجان البديان آدم وحواء. عند هذه النقطة يبدأ عمل الخلاص. فآدم الذي أبقى في حالة جهل ضمن شراك المادة، يجري إيقاظه من غفلته عن نفسه بواسطة مخلص هو ابن الله الذي أرسلته القوة العلوية، والذي يتطابق مع الإنسان القديم، أو مع يسوع بعد ذلك، ومع إله العقل (النوس) يقوم المخلص بتنبيه آدم من رقدته ويطلعه على الحقيقة ويريه روحه التي تعاني في عالم المادة، ويكشف له الأصول الشيطانية لجسده والأصول السماوية لنفسه. عندها يعرف آدم ذاته وروحه بفضل العرفان - الغنوص - ويصحو من غفوته.

المرحلة الثالثة: هي الحرب الكبرى بين قوى الخير وقوى الشر، حيث يحاول أمير الظلام يائساً نشر الشر في العالم من خلال التوالد الذي يأتي إلى العالم بأشخاص ماديين من أجل احتباس مزيد من عناصر النور. وبالمقابل يحاول العظيم الأول نشر الخير من خلال قواعد الدين الصحيح. ومن خلال

(1) أز تعني في الإيرانية الحديثة أمنية، ميل، نزعة.

إعاقه دورة التناسخ يجري تحرير النور، عندما تتحرر الروح من خلال المعرفة. بعد أن تنتصر كنيسة الحق سوف تحاسب الأرواح و يصعد المصطفون إلى السماء. بعد ذلك سوف يتطهر العالم من خلال نار مضرمة مدمرة تدوم 1468 سنة. وسوف تتصفي جميع ذرات النور أو معظمها. وتحبس المادة وكل تجسدياتها مع ضحاياها الخاسرين في كرة داخل فوهة عملاقة تغطي بحجر. وهكذا يتحقق فصل الأصليين إلى أبد الأبد.

الأصول:

الآن نعرف عن أصول المانوية أكثر من السابق، وذلك من خلال مقارنة مخطوطة كولونيا المانوية مع مصادر أخرى متوافرة، ولا سيما المصادر العربية. لقد تربى ماني في بيئة طائفة يهودية غنوصية معمدانية. هذه الطائفة التي تنسب إلى شخصية أسطورية أكثر منها تاريخية. واسم هذه الشخصية إلكساي، وفي الإغريقية ألكسايس، وفي العربية الحسيح. كانت الحسيحية حركة واسعة الانتشار، لا سيما في القرنين الثالث والرابع في سورية وفلسطين وبلاد الرافدين وشرقي الأردن وشمال الجزيرة العربية. واستمرت لقرون عديدة بعد ذلك. وقد ذكر الموسوعي ابن النديم أنها كانت موجودة في القرن الرابع الهجري فيما يعرف الآن بجنوب شرق العراق.

على أي حال، من الخطأ أن ننظر في أصل المانوية اعتماداً على معلومات كهذه فقط، لأن المرء يمكن أن يستنتج عندها وبشكل خاطئ أن الملهم الأصلي للعقيدة المانوية كان الغنوصية اليهودية. ما تزال أصول المانوية مفتوحة على الأسئلة، كما هي الغنوصية في الحقيقة. والتفسير الأكثر احتمالاً يجب أن يقر بالأثر المهيمن للثنوية الإيرانية، هذه الثنوية التي شكلت محوراً أساسياً في فكر ماني وفي تعاليمه وطقوس كنيسته. ولا بد من أخذنا بالحسبان وجود ثلاثة أنماط اعتقادية في المانوية: النمط الإيراني الذي هو في الأساس زرادشتي، والنمط المسيحي أو اليهودي، وبوذية الماهيانا. من بين هذه الثلاثة فإن النمط الإيراني هو الذي مسك بمفاتيح المنظومة المانوية، وقدم لها مفهوماً دينياً كونياً

جديداً نشأ عن الأفكار الرئيسة للغنوصية. ونحن إذا حاولنا أن نفصل المانوية كمنظومة عن عناصرها المسيحية والبوذية فإنها لن تعاني من خلل كبير.

تم الاعتقاد طويلاً أن المانوية ما هي إلا بدعة مسيحية. ولكن تم التخلي عن هذا المعتقد مع نهاية القرن التاسع عشر، والآن تم رفضه بالكامل، بالطريقة التي يجب أن نبذ بها المقاربة التي تعتبر أن المكونات اليهودية قد تأثرت بقليل أو كثير بالهلينية كعامل أساسي. توجد نزعة واسعة الانتشار اليوم تعطي تأكيداً موازياً لما أطلقنا عليه الأنماط الثلاثة المؤثرة في المانوية وتعتبرها ديانة كونية عظيمة ومستقلة، على الرغم من أن هذه المقاربة ما تزال تضمن قيمة العلاقة بين المانوية والمسيحية أحياناً.

مهما يكن، فنحن إذا قللنا من أهمية الاختلافات الواضحة، فإننا نستطيع تأكيد أن جذور المانوية قائمة في التراث الديني الإيراني، وأن علاقتها بالمزدكية أو الزرادشتية هي مثل علاقة المسيحية باليهودية، تقل أو تكثر.

التاريخ:

نستطيع متابعة بدايات هذا الدين إلى الوحي الثاني الذي هبط على النبي في سن الرابعة والعشرين. وذلك في شهر نيسان من عام 240م، عندما ظهر له الملاك، توأمه، الذي كان على حد وصف ماني «المرأة الجميلة والسامية لوجوده». عقب ذلك بدأ ماني مهمته النبوية والتبشيرية منقطعاً عن الحسحية، التي يطلق ابن النديم على أتباعها اسم المغتسلة، وطقوسها السلفية الصارمة. قدم نفسه على أنه خاتم الأنبياء، وأنه يبشر بعقيدة جديدة تستهدف جميع البشر: البوذيين والزرادشتيين والمسيحيين. تدفعنا عدة عوامل إلى الاعتقاد أنه في بداية بعثته النبوية رأى ماني أن الديانة الكونية التي بدأ بتأسيسها يمكن أن تتبنى الواقع السياسي الجديد للإمبراطورية الساسانية الفارسية التي أقامها أردشير الأول. وقد أهدى ماني عملاً إلى الإمبراطور شابور مكتوباً باللغة الفارسية الوسيطة، وفي ذلك مهد لإعلان الفكرة الكونية عن خاتم النبوة. إن أي طموحات لحاكم ساساني عظيم من أجل بناء إمبراطورية كونية لا بد أن تتوافق مع عقيدة دينية تقدم نفسها على أنها خلاصة وكمال التراثات الدينية العظيمة السابقة.

حركت روح تبشيرية المانوية منذ بداياتها. انطلق ماني أولاً باتجاه بلاد الهند، وربما سار على خطى الرسول توما، على أمل تحويل الجماعات المسيحية الصغيرة المنتشرة على ساحل فارس وبلوشستان إلى الدين الجديد. وربما أيضاً الوصول إلى أقاليم كانت قد انتشرت فيها البوذية منذ فترة قريبة. ويتكلم التراث المانوي عن هذه المهمة الرسولية الأولى بتحول طوران شاه، حاكم طوران البوذي إلى المانوية. وطوران هي مملكة في جنوب شرق إيران. كانت تلك المهمة الرسولية قصيرة نسبياً بسبب التحولات التي حدثت في الإمبراطورية الساسانية. وهي موت أردشير واعتلاء شابور العرش. وبدأت مرحلة جديدة مع شابور، حيث انتشرت المانوية في تلك الفترة في إيران وحظيت بمكانة مهمة، والفضل في ذلك يعود إلى دخول موظفي البلاط الكبار، وحتى أعضاء من الأسرة الملكية في الدين الجديد. كما كان لدعم الملك الدور الأبرز في انتشار الدين. لقد كادت المانوية أن تغدو الدين الرسمي للإمبراطورية الفارسية، وأصبح ماني نفسه يتمتع بمكانة عالية بعد أن حظي بمقابلة الملك شابور وانضم إلى حاشيته. وحصل ماني على موافقة تسمح له التبشير بالعتيدة الجديدة في كل الإمبراطورية وتحت حماية السلطات المحلية. كتب ماني كتابه الشابورقان في هذه الفترة الذهبية للمانوية وأهداه إلى جلالة حاميه، لكن لم يصل إلينا من هذا الكتاب سوى شذرات.

وحالما ترسخت المانوية كنيسة حقيقية من خلال مؤسسها، بدأت بالانتشار خلف حدود فارس غرباً في الإمبراطورية الرومانية، وفي اتجاه الشرق والجنوب الشرقي والجنوب. وكتب ماني معلناً: «أملّي أن تصل الكنيسة المانوية إلى شرق الأرض، وإلى كل الأقاليم المسكونة على الأرض شمالاً وجنوباً... لا أحد من الرسل السابقين قد أنجز شيئاً كهذا». (كيفاليا 1).

استمر الخط السياسي المزدهر للمانوية بضع سنوات فقط. لقد بدأ عداء دين الدولة الرسمي بالتزايد، وهو الزرادشتية، حيث قاد الإكليروس المجوسي بزعامة كبير الكهنة النافذ قيردير حملة ضد المانوية، وذلك من خلال كنيسة وطنية تتمتع بروح قومية غيرة قوية وأرثوذكسية صارمة.

وأَسباب النزاع بين زرادشتية الماِجي والمانوية في القرن الثالث متعددة: أولها، وجود طبقة كهنوتية وراثية ضمن تركيبة اجتماعية تراتبية قائمة على الطبقات، وذات نزعة محافظة وتقليدية. ثانياً، الآفاق الثقافية والروحية للمناطق الشرقية للإمبراطورية الشرقية التي تتميز بالمحدودية والضيق، حيث يوجد مجتمع زراعي وأرستقراطي نمطي في الهضبة الإيرانية، وهو كبير الاختلاف عن المجتمع متعددة الإثنيات والثقافات، والمركب الموجود في الأقاليم الغربية البعيدة في الإمبراطورية، حيث نشأت حضارة مدنية كوزموبوليتية مزدهرة. ثالثاً، التحالف بين العرش والماِجي والذي بقي متيناً على الرغم من التباينات الداخلية على امتداد الفترة الساسانية، لم يتح للمانوية أن تسيطر، بالإضافة إلى تعرضها للاضطهاد الدوري والشرس. كل ذلك أدى إلى إضعافها وإبقائها في موقع الأقلية.

عكست المانوية بدقة الهموم والتطلعات الدينية لتلك الفترة، وذلك من خلال عقيدتها في الخلاص، وفكرة المعرفة المحررة، والقيمة التي أعطتها للتجربة الشخصية مع القدسي. هذا من جانب، ومن جانب آخر فقد عكست الزرادشتية المعاد إليها اعتبارها، توجهاً ساد أثناء القرن الثالث في كل من الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية، نحو تشكل ثقافة قومية. من هذا المنظور نستطيع أن نرى المانوية باعتبارها وريثاً للانتقائية والتوفيقية البارثية، أكثر من كونها مفسراً للتحويلات الثقافية والسياسية الواسعة التي شهدتها إيران مع صعود السلالة الساسانية إلى السلطة.

بدأ أول اضطهاد ضد المانوية بعد موت شابور وخليفته هرمز الأول، ومع قتل ماني بأمر من بهرام الأول، ربما في بدايات العام 277م. تالت بعدها أحداث كثيرة مؤثرة ضد الجماعات المانوية في كل أقاليم الإمبراطورية، من خراسان إلى سلوقية في بلاد الرافدين وطيسفون التي كانت مركز البابوية المانوية. على أي حال، لم تستأصل المانوية كلياً من العالم الإيراني، فقد استمرت لقرون بعد ذلك. واستمرت في تلك الأقاليم الساسانية في ظل حكم الخلفاء الأمويين على الرغم من الانقسامات الداخلية والجدل المنضبط.

انتقلت المانوية غرباً في القرنين الثالث والرابع إلى داخل الإمبراطورية الرومانية، وانتشرت في مصر وشمال أفريقيا وفلسطين وسورية وآسيا الصغرى ودلماطية وروما وصولاً إلى جنوب بلاد الغال وأسبانيا. وتعرّض اتباع المانوية للاضطهاد على يد السلطات المركزية وسلطات الأطراف الإمبراطورية، ولاقوا في كل مكان العداء من قبل المؤسسات الدينية والسياسية. لقد تعاملت روما مع المانويين على أنهم عنصر هدام خطير، وكانوا غالباً يصنفون على أنهم عملاء للسلطة الفارسية الغريمة. وعلى الرغم من الاضطهاد والمراسيم الإمبراطورية التي صدرت ضدهم فقد ظل الدين مستمراً، ما عدا بعض المناطق الغربية من الإمبراطورية الرومانية. مثال على المراسيم المرسوم الذي أصدره ديو قليتيانس سنة 297م ضدهم.

صوّرت المانوية على أنها تهديد جدي وصولاً إلى الحقبة المسيحية. لذلك تكرر اتخاذ الإجراءات القمعية من قبل السلطات الإمبراطورية الرومانية والكنيسة، ولا سيما من جانب البابا لاون الكبير 445م. وقد أحس الإمبراطوران جوستين وجوستنيان بالحاجة لإصدار قانون ينزل عقوبة الموت بكل من يتبع تعاليم ماني.

كان الإسلام متسامحاً في البداية مع المانوية كما تسامح مع الزرادشتية والمسيحية، لكن في النهاية تعامل معها بعنف كما الزرادشتية والمسيحية أيضاً.

وتميزت مرحلة الخلافة العباسية بتجديد إجراءات القمع الدموية، والتي نجحت في دفع المانويين شرقاً باتجاه الصغد، وذلك في القرن العاشر الميلادي. استطاعت الديانة المانوية الانتشار في خراسان وخوارزم وبلاد الصغد⁽¹⁾، واكتسبت بعض القوة، ومن هناك استطاع المانويون نشر إنجيل ماني وصولاً إلى

(1) السغد أو الصغد هي بلاد ما وراء النهر أي ما وراء جيحون أو أمودريا حالياً، وفيها بخارى وسمرقند، وقد جاءت تسميتها كذلك من شعب الصغد الذي سكنها، وهؤلاء مجموعة إيرانية دخلت تحت طاعة الفرس أيام داريوس الأول 522-486 ق.م وذكرها البيروني بين شعوب ما وراء النهر - المترجم.

الصين وآسيا الوسطى. عانت الديانة المانوية من الانشقاق في العقود الأخيرة من القرن السادس بسبب من كانوا يُدعون الأوصياء على الدين القويم، وهم يمثلون مذهباً متشدداً وتطهيرياً في المانوية. وأصبحت سمرقند مقراً للسُدة البابوية المانوية الجديدة في تلك المرحلة.

قبل انتهاء القرن السابع كانت المانوية قد وصلت إلى الشرق الأقصى. وبينما أعيد فتح طريق القوافل العظيم من كِشغار إلى كوتشا إلى كاراشهر متبعاً طريق الغزو الصيني لتركستان الشرقية، عاودت المانوية الظهور في الصين وذلك عن طريق البعثات التبشيرية بشكل خاص. وصدر مرسوم إمبراطوري عام 732 منح المانويين حرية ممارسة ديانتهم في تلك المنطقة. امتدت الديانة المانوية إلى آسيا الوسطى ومنغولها، وإلى إمبراطورية الويغور الواسعة، حيث اتخذت أباطرتها المانوية كديانة رسمية للإمبراطورية في عام 763. غير أن الأحداث السياسية والعسكرية التي تلت سقوط إمبراطورية الويغور في عام 840، كانت السبب في نهاية سيادة المانوية في آسيا الوسطى، ومع ذلك فقد استمرت بطريقة ما حتى القرن الثالث عشر. وفي الصين حيث عانى المانويون من الاضطهاد أثناء القرن التاسع، وحيث منعت المانوية بمرسوم في عام 843 مباشرة بعد انهيار إمبراطورية الويغور، استطاعت الاستمرار على الرغم من كل ذلك حتى القرن الرابع عشر بحماية جمعيات سرية، جنباً إلى جنب مع الطاوية والبوذية.

الكنيسة المانوية:

يوجد فصل بارز في البنيان الإكليريكي المانوي بين طبقات رجال الدين، حيث قُسم الإكليريكي إلى أربع طبقات: ضمت الطبقة الأولى المعلمين أو الرسل، وعددهم الإثنان والسبعين، أما الطبقة الثالثة فضمت القهرمانات أو الشمامسة القيمين والذين لم يتجاوزوا الثلاثمئة والستين. وضمت الطبقة الرابعة المجتبيين أو الصديقين، وشكلت الطبقة الخامسة العامة من الملة ويدعون بالسماعين. فقط الرجال يستطيعون أن ينتسبوا إلى الطبقات الثلاث الأولى وهذا هو الإكليريكي الحقيقي. ويوجد فوق هؤلاء جميعاً زعيم

المؤمنين البابا المانوي. عاش رجال الدين في أديرة في المدن واعتاشوا من خلال تقدمات العامة والمؤسسات الوقفية. هذا النظام مشتق بوضوح من نظام الرهبنة البوذية أكثر منه من المسيحية. وقد حكمت مجموعة قوانين أخلاقية مختلفة كلاً من رجال الدين وعامة الشعب. كان على رجال الدين أن يتبعوا الوصايا الخمس: الصدق وعدم العنف والامتناع عن الجنس والامتناع عن اللحم، والامتناع عن زمرة الطعام والشراب التي اعتُبرت دنساً، والتزام الفقر. وكان على العامة أن تتبع أولاً القوانين العشرة للسلوك الحسن، والتي من بينها الالتزام الصارم بالزواج بواحدة فقط، والامتناع عن كل أشكال العنف ضد الناس وضد الحيوانات. ثانياً أن يؤدوا الصلاة أربع مرات في اليوم، وهي صلاة الفجر ومنتصف النهار والمغرب والليل، وذلك بعد اتباع الطقوس الخاصة للتطهير.

ثالثاً أن يساهموا بالعشر أو السبع من أموالهم لإعانة رجال الدين. رابعاً الصيام يوم الأحد من كل أسبوع وثلثين يوماً من كل سنة وهي الأيام التي تسبق الاحتفال بالعيد الكبير المقدس المدعو بيمما bema. وخامساً الاعتراف بالخطايا في يوم الاثنين من كل أسبوع، بالإضافة إلى الاعتراف الجماعي الكبير الذي يأتي في نهاية شهر الصيام.

يتميز القداس المانوي بالبساطة، حيث تتلى فصول من حياة ماني وعذابه واستشهاده وفصول من حياة الرسل الأوائل. والعيد الكبير عندهم هو عيد بيمما الذي يأتي مع الاعتدال الربيعي، حيث يحتفلون بذكرى آلام ماني من خلال صلاة الرسول، والاعتراف الجماعي بالذنوب، وترتيل ثلاثة أناشيد لراحة ماني، وتلاوة «عهد الرسول الروحي» و «رسالة خاتم الأنبياء»، و«ترانيم تمجد انتصار الكنيسة»، وبعد ذلك يقدم السماعون وليمة للصفوة. من بين الأماكن المقدسة اليمما أو الحرم المقدس، وهو عرش على علو خمس درجات، وقد ترك خالياً كذكرى للذي غادر العالم على الرغم من أنه بقي كهادٍ وحاكم خفي للكنيسة. من المحتمل أن العرش الخالي رمز بوذي في الأصل.

التراث والعناصر الحية:

إن بقاء المانوية بمثابة مصدر إلهام لعدد من هرطقات العصر الوسيط في الغرب، يطرح أسئلة معقدة. فقد اعتُبرت الثنوية المانوية على أنها أصل العلة في تلك الحركات المهرطقة القائمة على الثنوية وعلى الزهد الأخلاقي. وجاءت الاتهامات للمانوية أساساً من المناوئين للمهرطقة لينوا علاقة هؤلاء بمعتقدات ماني، على الرغم من أن صلة كهذه من الصعب إثباتها ببرهان لا يقبل الشك. ذلك أن المذهب البريسلياني الذي ظهر في أسبانيا في نهاية القرن الرابع لم يكن له علاقة بالمانوية، على الرغم من أن البولسية التي ظهرت في أرمينيا في القرن السابق والبوجوميلية في بلغاريا قد يكون لهما صلة بالمانوية. ظهرت البوجوميلية في بلغاريا في القرن العاشر، وانتشرت عبر شبه جزيرة البلقان حتى آسيا الصغرى الساحلية، بالإضافة إلى الحركة الكاثارية في جنوب فرنسا وشمال إيطاليا أثناء القرنين الثاني عشر والثالث عشر، والتي اعتُبرت جميعها حلقات في السلسلة نفسها، يمكن أن نطلق عليها مانوية العصور الوسطى، أو المانوية الجديدة. والاحتمال أن يكون هناك رابط بين هذه الحركات قائم. وفي الحقيقة فإن رابطة ما قد تكون موجودة بين البوجوميليين والكاثار. ولكن من غير الممكن إثبات أن أصلهما مانوي. إن الخصائص العامة والبيئة الاجتماعية التي تطورت من خلالها هذه الحركات، بالإضافة إلى الطبيعة الغنوصية للمانوية، توحى جميعاً بتأثير عام أكثر من كونه تأثيراً مباشراً. وهذا يعني قاعدة إلهام من الديانة الثنوية العظيمة للعهود القديمة المتأخرة. ويبدو من المؤكد لنا الآن أنه في فترات قصيرة معينة تواجدت المانوية ذاتها في الغرب في مجموعات سرية أو في أشكال سرية، ولا سيما في أفريقيا الرومانية، على الرغم من الحظر والاضطهاد في القرن السادس. ما تعرضت له المانوية في الشرق كان مماثلاً لما تعرضت له في الغرب باستثناء الصين حيث نعلم أن المانوية قد استمرت حية متخفية بمسوح التاوية والبوذية حتى القرن الرابع عشر.

ترجع المزدكية في أصولها إلى المانوية، وهي حركة اجتماعية دينية في إيران الساسانية بين القرنين الخامس والسادس، ولا يمكن إنكار تأثير المانوية في هذه الحركة بنسبة ما، على الرغم من أن الحركة تصنف على أنها صيغة هرطوقية من الزرادشتية. وكان هناك محاولة من حين لآخر لتصنيف المانوي على أنه مسلم زنديق. في العربية مهرطق وتعني المفكر الحر. والكلمة مشتقة من الفارسية الوسيطة Zandig، وقد استعملها الزرادشتيون ليصفوا أولئك الذين استعملوا كاب الزند، وهو ترجمة فارسية وسيطة مع تعليقات على الأفيستا بأسلوب ابتداعي مهرطق. وعلى الرغم من أن كلمة زنديق كانت تستخدم للدلالة على المانوي، فإن معناها في الواقع أوسع من ذلك، وهكذا لا يمكن حصر الزندقة بالمانوية.

استمرت المانوية في العلم الإسلامي على الرغم من ملاحقات العباسيين. وقد مارست بعض التأثير في التيارات الغنوصية في هذا العالم. أخيراً يوجد تشابه كبير وصلة مباشرة ما بين المانوية وبعض المفاهيم الكونية التبتية التي من المفترض أنها انتقلت عبر الهندوس الكوشيين.

Gherardo Gnoli

المانوية والمسيحية

تعالم ماني من حيث الأساس غنوصية، وعناصرها المكونة مشتقة من الديانة الإيرانية، ولا سيما الزرادشتية في صيغتها الزروانية. لقد والفت بين أفكار مأخوذة من مرقيون بنطس المتوفى 160م، وبين أخرى مأخوذة من الغنوصية اليهو - مسيحية المتمثلة في برديسان الرها (154-223م). وعلى الرغم من هذا النسب الثاني، فإنه من المشكوك فيه اعتبار المانوية على أنها هرطقة مسيحية. وفي حال اعتبرناها كذلك يمكن الاستناد إلى أن ماني قد أعلن نفسه واحداً من رسل يسوع المسيح والفارقليط الذي بشر به يسوع. وإلى أن المانويين المتواجدين في الإمبراطورية الرومانية قد اعتبروا أنفسهم المؤمنين الحقيقيين، ونظروا إلى بقية أعضاء الكنيسة المسيحية على أنهم أشباه مؤمنين.

آمن ماني أنه كان ينشر ديناً كونياً جديداً سوف يحل محل كل الأديان الأخرى. بهذا المعنى، وبمعكس أتباعه في الغرب، لم يكن ماني يعتبر نفسه مسيحياً. وأكثر من ذلك، عندما اتجهت المانوية شرقاً اختلفت طروحاتها بشكل كبير. لقد تقمص ماني في الصين الجنوبية شخصية لاوتسو مؤسس الطاوية، وكان بالنسبة لآخرين بوذا النور. بمعنى آخر فإن المانوية الشرقية لم تكن تتطابق مع المانوية الغربية. والأناشيد الدينية القبطية التي كانت تعبر عن الدين المنتشر في مصر في القرن الرابع الميلادي، لم تكن بمجملها إلا صيغة لا يمكن تمييزها عن مثيلاتها التقليدية. أما التراتيل البارثية التي تشير مراراً إلى «مخلص» فإنها لا تذكر هذا المخلص بالاسم. ربما كان ذلك نتيجة لفقدان العديد من الوثائق المانوية، ولكن الأرجح أن عدم ذكر اسم المخلص كان أمراً مقصوداً، بحيث يمكن أن يتطابق مع كل المخلصين:

زرادشت أو المسيح أو بوذا أو لاوتسو أو ماني. وبهذا تستطيع المانوية كدين توفيقى ان ترفع من شأن المسيح أنا ومن شأن بوذا أنا آخر، لتتلاءم مع الوضع الذي تجد نفسها فيه.

كانت المانوية ثنوية أساساً. اعتقدت أنه يوجد أصلاً أزليان: النور / الروح، والظلمة / المادة. وتشكل الوجود الحالي نتيجة الامتزاج بين هذين الأصلين، وحدث ذلك نتيجة مهاجمة الظلمة للنور، مما أدى إلى بعثرة ذريرات النور. وهذا التجزؤ للماهية الروحية وإحاطتها بالمادة أدى إلى وجود الروح في الكائنات البشرية أو الحياة في النبات. وهذه كلها تعاليم غنوصية بالكامل تُخترل في المفهوم المحوري: «ذهب في الطين»، أي الروح الحبيسة في المادة. ويعني هذا أن العنصر الثمين بحاجة لأن يتحرر ويعود إلى مصدره. يتم هذا التحرر في المانوية المسيحية في جزء منه بعون من يسوع الذي يعتبر كائناً سماوياً منزهاً، وتجسيداً للعقل المفكر. وهو الذي جاء بالغنوص المخلص إلى فلسطين. لكن يسوع هذا ما هو إلا شكل شبحي يبدو على هيئة إنسان من لحم ودم. فهو لم يمر في مرحلة الولادة، ولم يصلب في الحقيقة، لذلك ليس هناك من حاجة لينهض من بين الأموات. وإذا ما حافظت المانوية على مفهوم آلام يسوع فقد ربطت ذلك بمعاناته المفترضة في كل ثمرة على كل شجرة. وسيبقى يسوع في عذاب حتى نهاية العالم عندما يجيء قاضياً: عندها سوف ينفصل النور عن الظلمة ويعود كل شيء إلى أصله.

هذه التعالم المختلفة عن المسيحية القويمة، تدعمها كتابات ماني نفسه وكتابات رسله الاثني عشر، كما تدعمها نسخة من كتاب العهد الجديد أعدها المانويون، بعد تعديلها على طريقة المسيحي الغنوصي مارقيون⁽¹⁾، بحيث

(1) كان مارقيون قد أعد نسخته الخاصة من العهد الجديد نحو عام 150م، احتوت على إنجيل لوقا فقط، بعد أن حذف منه قصة الميلاد وسلسلة نسب يسوع، إضافة إلى عشر رسائل لبولس - المحرر.

احتوت على نصوص معدلة للأناجيل، إضافة إلى أسفار أخرى من العهد الجديد نالها التعديل أيضاً.

تدين المانوية الغربية بنسبة ما للمسيحية الأرثوذكسية في تنظيمها التراتبي، حيث يوجد الأساقفة والخوارنة والشمامسة، بالإضافة إلى الاثني عشر رسولاً. ويوجد تأثير من المحتمل أنه قادم من البوذية، حيث توجد فئتان هما المجتوبون والسماعون. ويخدم السماعون المجتبيين المحكومين بالعهود الثلاثة: لا يشاركون في شهوات الجسد وشرب الخمر، ولا ينشغلون بأشياء خارجية مثل حراثة الأرض، ولا يكون لهم علاقات جنسية أو يتزوجون.

لقد تقدمت المانوية سريعاً في العقود الأخيرة من القرن الرابع في كل من مصر وسورية وشمال أفريقيا، ولكن في عام 439 أصبح الكثير من أتباعها لاجئين نتيجة الحملة العنيفة للفرانك هناك. وقد جدّ البابا لاون الكبير من 440 حتى 460 في طلب اللاجئين المانويين لإخضاعهم. وقد كان هناك دعاوى قضائية ضدهم في القسطنطينية حتى 527م. مهما يكن، فقد استمر وجود بعض المانويين في شمال أفريقيا حتى القرن الثامن على الأقل. أما في الشرق، ولا سيما في تركستان الصينية، فقد وُجدت أدلة على نشاط المانويين حتى القرن الثالث عشر.

وُجدت نصوص لكتاب مسيحيين في العصور الوسطى تبين أن المانوية قد حافظت على وجودها في الغرب. فقد اتهم كل من البولسيين والبوغوميليين والكاثار وأتباع بريسكليان بكونهم مانويين. لقد استخدمت كل السلطات القائمة المانوية كمرادف للثنوية، وكل تعاليم تظهر نزعة تجاه الثنوية قد صنفت مانوية طبقاً لذلك.

إن تعاليم بريسكليان وأتباعه (نحو 370م) من الصعب تحديدها بدقة، ولكن من الصعب أن نطلق عليها صفة المانوية. والبولسيون الذين ظهروا أولاً في أرمينيا في القرن السابع، يبدو أنهم من الغنوصيين التقليديين ولهم تأثيرهم

المباشر في البوغوميليين الذين ظهوروا في بلغاريا في القرن العاشر. وبدأ الكاثار في اكتساب سوء السمعة في القرن الحادي عشر في كل من إيطاليا وألمانيا وفرنسا. وقد أطلق عليهم اسم البيجين في فرنسا. لكن لا يبدو أن هناك أي رابط بين هذه الحركات وبين قدماء المانوية.

J.G.Daves⁽¹⁾

(1) تمت ترجمة هذه المقالات الثلاث في المانوية عن:

M. ELIADE, EDT, ENCYCLOPEDIA OF RELIGION, Macmillan, London, 1987

الفصل الثالث

اليهودية

تأليف : John B.Noss

ترجمة : عبد الرزاق العلي

